ابو البقاء الرندي

شاعر رثاء الأندلس

الدكتور محمد رضوان الداية
أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي
في جامعة دمشق

مكتبة سعد الدين

ابو البقاء الرندي

شاعر رثاء الأندلس

جَميعُ الحقوق محفوظة
للمؤلفْ

الطبعة الأولى
١٣٩٦ - ١٩٧٦
الطبعة الثانية
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

ابو البقاء الرندي

شاعر رثاء الأندلس

الدكتور محمد رضوان الداية
أستاذ الأدب الأندلسي والمغربي
في جامعة دمشق

مكتبة
سعد الدين
بيروت
ص.ب. ٨٧٢٣

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

بسم الله الرحمن الرحيم

اشتهر أبو البَقاء (أو أبو الطيِّب) الرُّندي بقصيدةٍ رثى بها الأندلس، أو هو رثى ـ على وجهِ الدقّة ـ المدنَ والبلدانَ والحصونَ والمناطِق التي سقطت لِزَمَانِه، في جُملة حركة الاستِغلاب العارمة؛ وهي قصيدةٌ مؤثِّرة مُشْجِيَة، اندفع فيها الشاعر مع حماسته الوطنيّة والدّينيّة، فبكى ما ضاع من ديار قومِه، واستنهضَ الهِممَ لاستردادِها وحرّض على القِتال والجِهاد. وكان لأوصافِ الأسرى، والنِّسوة المسبيّات، والمغلوبين على أمرهم من المُسلمين في القصيدة الأثرُ البعيدُ في التأثير في القارىء والسّامع. . . فكانت قيمةُ القصيدةِ مستمدّةً ممّا فيها من عاطفة جَيّاشة، ومما سَرد صاحبُها من أخبار مُحزنة؛ وممّا صاغَ من عِبارة، وممّا أثار من حَماسة.

وكانت المعلوماتُ عنه قليلة، بل إن المترجمين المعاصرين يَقْتَصِرون ـ في الأغلب ـ على نُقُولٍ قليلةٍ وردت

عنه في (نفح الطيب) و(أزهار الرياض) للمقّري التلمساني؛ لا يكادون يَزِيْدُون. ولم يكن الرُّندي في الحقيقة شخصيةً مغمورةً في زمانه، بل كان شاعراً بارزاً، متعدد جوانب المعرفة والثقافة والنشاط. فقد عُرِف عنه عنايته، وتأليفه في علم الفقه، والفرائض، والحَديث، وغيرِها من العُلوم الشّرعية، بالإضافة إلى جوانب أدبية مختلفة. وحين نذكر جوانبه المتعددة نقفُ على شخصيّة الرُّندي المترسل الكاتب، والناقد البلاغي، وهو يُعَدُّ واحِداً من نقّاد الأَنْدلس المتأخرين، وقد وصل إلينا كتابه النقدي: الوافي في نظم القوافي.

فنحن إذن أمام شخصية أندلسية مرموقة المكانة.

ولم يَغْفَل معاصروه - ومَنْ جاء بعدهم - عن مكانته، وعرفوا له حَقّه وقدروه قدره، بحسب إمكانات ذلك الوقت وظروفه. وهو حَظِي بعناية دولة بني الأحمر بعد أن استقرّ مقامهم في غرناطة، واستتبَّتْ أُمورهم فيها. وكان الشّعر أحدَ جوانب تلك الشخصية التي جدّدت ذكرياتِ القُرون الخالية من مشاهير الشُّعراء الأندلسيين البارزين.

ونقدم هذه الدراسة عن الرُّندي الأديب، الشاعر، الناقد، على أمل جَلاء بعض الغُموض الذي أحاط به عند المعاصرين، ودراسة جوانبه تلك دراسةً تبيّن أثره ومكانته في

الحركة الأدبية في الأندلس، وتُقرِّبُه إلى القارىء والمتتبِّع تقريباً، وتكون إسهاماً في العناية بالأندلس وآثارنا الأندلسية.

د. محمد رضوان الداية
وهران (بالقطر الجزائري)
كانون الثاني (جانفي) ١٩٧٥

الفصل الأول

الفرش
الحياة السياسية
الحياة الاجتماعية
الحياة العقلية

الحياة السياسية

كانت الأندلس ـ منذ أوائل عهد المسلمين بها ـ كما هو معلوم، ولايةً تابعةً للدّولة الأموية في المشرق (دمشق)، ثم انفصلت واستقلّت منذ زمن عبد الرحمن بن مُعاوية (الدّاخل). وقد تحدّد مصيرها منذ ذلك الوقت بأنْ تنقطعَ عن الدولة الأُمّ، وأن تواجه حركة الاستِغْلاب[1] الإسبانية، التي بدأت صغيرة متواضعة ثم نمت مع مرور الأيام. وظلّت كفة المسلمين راجحة طَوال عهد بني مروان؛ فلما كانت مدة دُول الفِرَق (الطّوائف) ضَعُفت قوتهم وفشلوا، ونشبت الفتنة بينهم، وأضاعُوا الجهاد، وأحَلُّوا محله أطماعاً إقليميّة ضَيّقة لم تنفعهم في دوام دُنياهم، بل كانت وَبالاً عليهم وعلى أولادهم من بعدهم؛ وجنَت الأندلس من وراء ذلك خَسارة جسيمة.

---

(١) نفضل اصطلاح (الاستغلاب) الذي استعمله أحد مؤرخي الأندلس المعاصرين د. حسين مؤنس بدلاً من (الاسترداد) فهو أكثر ملاءمة ودلالة. (انظر الشعر الأندلسي ترجمة الدكتور مؤنس ص ٦١).

وعلى الرَّغم من سرَيان الدم المرابطي فالموحّدي في جسم الدّولة، والأرضِ الأندلسية في فترتين متعاقبتين (أواخر القرن الخامس ـ أوائل السَّابع) فإنّ الانحدار كان مُستمراً بطيئاً رويداً، إلى أن كان انهيار دولة الموحدين المفاجىء في كل من المغرب والأندلس، وتهافت الحكم الإسلاميّ وراء جبل طارق تَهافُتاً سريعاً، وانحصارُ المسلمين في دولة غرناطة.

وقد استغلّت دول النصارى الإسبانية فترتين قلقتين في حياة الأندلس السياسية والعسكرية. الأولى هي فترة الشغور الأندلسي من السلطة الواحدة القوية في القرن الخامس (نحو ٤٢٥ ـ ٤٧٩) حيث استطاع ـ في هذه الأثناء ـ ألفونسو السادس (الأذفونش كما يُسمّيه العرب) أن يستَغْلِب مدينة طُلَيْطِلَةَ المَنيعة[1] في وسط الأندلس مُؤْذِناً بخرم الخريطة الأندلسية ومنذراً بالتهام بلاد أخرى لا تقل عنها منعة وتحصيناً.

والفترة الثانية كانت بعد هزيمة العِقاب (٦٠٩) وانشغال الموحدين بخلافاتهم على السلطة، وبنشاط أشياعهم من بني مَرِيْن الذين بدؤوا ينقُضون سلطانهم لإقامة دول جديدة على أنقاضهم.

---

(١) راجع التاريخ الأندلسي ٣٢٦ وما بعدها.

واتفق هـذا ـ في المـدة والـوقت ـ مـع استعـار الحـرب الصليبية التي غزت المشـرق، وكان لـلأندلس ـ أيضـاً ـ منها نصيب. واعتَبر البابا الحرب في الأندلس لاستغلالِهـا مقدسة، وحـرّضوا واحـداً بعد واحـد على أخـذ مـدنهـا ودولهـا بشتى الـوسائـل[1]. وهكذا؛ وبعـد انهيار الأنـدلس الكبرى، سقط معـظم المـدن الأنـدلسيـة العَـريقـة، والحُصـون الحصينـة، والمراكز الحضارية العـظيمة؛ واستـدرك بنو الأحمـر في دولة غـرناطـة ما أمكن أن يستـدركـوه وهم بين تَمـاسُـك الشجـاع ومُداراة المَغْلوب.

في هذا القرن السابع الذي شهد المأساة الأندلسية ولد أبو البقاء الرُّندي وعاش، وتوفيّ. لقد رأى وأدرك ما أصاب بنيان الأنـدلس العظيمـة من التصـدع والانهيـار، فبكى مـا ضـاع، واستنهض الهمم لاسـترجـاعـه ـ دأب الشـاعـر الـذي يحس بقضـايا أمتـه ووطنه ـ ولاستـدراك ما فـات. وكـانت صـرخَتُـه صيحةً في جملة صيحات الاستغاثة والاستصراخ، أثمرت من بعـد ـ وكادَ يفـوتُ الأوان ـ تعـاونـاً بين بني مـرين (أصحـاب المغرب الجدد) وبني الأحمر (ملوك غرنـاطة) دامَ مـدّة طويلة من الزمان.

---

(١) عصر المرابطين والموحدين: محمـد عبـد اللّه عنـان ٢: ٢٨٨، والتـاريـخ الأندلسي. د. عبد الرحمن الحجي ٤٦٤. (وانظر مراجعهما).

عصر الرُّندي:

كانت الأندلس، في أواخر القرن السادس الهجري، تحت ظِلّ الموحدين. وكانت قاعدةُ الدولة في معظم أيامهم مدينةَ إشبيلية، وهي لا تزال تحتفظ إلى اليوم بعدد من آثارهم العُمرانية والحضارية. وكانت الحرب الجهادية مستمرةً بينهم وبين الدّول الإسبانية المعاصرة. وكانت تلك الدول في النصف الثاني من القرن السادس وأوائل السابع خَمساً هي قَشْتالة وليُون، وأَرَغُون، ونَافار (نبرَّة) والبُرتغال (البرتقال). وبعد أوائل الربع الأول من القرن السابع صارت إلى ثلاث دول فقط حين ذابت دولتان منهما في الثلاث الأُخريات، وبقيت قَشْتالة وأَرَغُون والبُرتغال. واستمرت الدول الثلاث في حرب الاستغلاب، فكانت البرتغال تهاجم من الغرب وقشتالة من الشمال والوسط وأرغون من الشرق.

وكانت آخر معركة هامة انتصر فيها المسلمون هي وقعة الأَرك (٥٩١) قادَها أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي (٥٨٠ ـ ٥٩٥) ضد ألفونسو الثامن ملك قشتالة المؤيد بجيوش أرغون ونبرَّة. وكان ألفُونسو هذا بجمع جيوشه والوافدين عليه هو المنتصر سنة ٦٠٩ في (العقاب) على ابن المنصور المقّب بالناصر. وقد كان وُجود بِطْرُه (بِدْرُو الثّاني) ملك أرغون في المعركة مع قوات أوروبية أخرى يُضفي على المعركة صِفَة الحروب الصليبية المماثلة لما في المشرق في

المدة نفسها[1]. وقد كانت هزيمة المسلمين (موحّدين وأندلسيين) في العقاب منكرةً شنيعة، وكانت مِفتاحاً لتداعي الأندلسيين تداعياً سريعاً[2]. وسقطت على إثر المعركة عدة مدن وحصون أهمها بَيَّاسَة وأُبَّدَة. واتسع الخَرْق ـ مَن بعد ـ على الرّاقع!

وتعانَقت بعد هزيمة العقاب أمورٌ كثيرة أدّتْ إلى تهافت الحكم الإسلامي في الأندلس نُجملها فيما يلي:

١ ـ ضعفُ الدّولة الموحدية بتهافت خلفائها، والانقسام بين السادة والأَشْياخِ الموحدين فيما بينهم. وفي دولة المستنصر (ت ٦٢٠) الذي خَلف الناصر: «فشل أمر الموحدين وأشرفت دولَتُهم على الهرم، واستولى ألفنش (الفونسو الثامن القشتالي) على المعاقل التي أخَذها المسلمون، وهَزم حامية الأندلس في كل جهة، واستبدّت السّادة بالأَطراف، والتاثَتْ الأُمورُ بالأندلس والمغرب أجمع: أما الأندلس: فَبِتكالُب العَدُوّ عليها وفناءِ حُماتها؛ وأما المغرب فَبِخلاء كثيرٍ من قراه وأمصاره من وقعة العقاب»[3].

---

(١) عصر المرابطين والموحدين ٢: ٢٨٩. وراجع الروض المعطار للحميري: ١٠٩، ١٣٨. وقارن بـ (التّاريخ الأندلسي ـ د. حجي).

(٢) راجع تفصيلاً لمقالات مؤرخي الأندلس كابن الأبار، وابن عذاري، والحميري وغيرهم في (تاريخ الأندلس): ٤٩٤ وما بعدها.

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى لأبي العباس الناصري ٢: ٢٢٦.

وكَثُر المتآمرون من الموحدين في المغرب والأندلس فانفسح المجال أمام الثوار في العُدوتين للانتقاض والاستقلال.

٢ ـ ظهورُ دول أقل قوة من دولتي المرابطين فالموحّدين في المغرب. فقد خَلف الموحّدين ثلاث دول: هي دولة بني مرين في المغرب الأقصى، ودولة بني زَيّان في المغرب الأوسط، ودولة الحَفْصِيّين في المغرب الأدنى. وقد كان بنو مَرِين هم الأقرب للأندلس؛ وسيحتلون مكان المرابطين والموحدين في الجهاد بالأندلس غير أن قوة المرينيين واستطاعتهم لم تكن كسابقيهم.

٣ ـ توالي استِغلاب الأندلس من جهاتها المختلفة. ففي نحو ثُلث قرنٍ من الزّمان ضاعت معظم القواعد الأندلسية. فبعد العقاب (٦٠٩) كانت وقعةُ قصر أبي دانس (٦١٤). وكان نجومُ (ظهور) عدد من الثوار في الأندلس (انظر الفقرة التالية) عاملاً مساعداً لسقوط المدن واستغلابها لضعفهم وسوء تدبيرهم وتشتّت قواهم ومُحاربة بعضهم بعضاً أحياناً. وهكذا سقطت ماردة وبطليوس (٦٣٨) بعد هزيمة ابن هود أمام فرناندو الثالث ملك قشتالة. وسقطت أُبَّدَة (٦٣٠). وبَلَنْسِيَة (بيد خايمي الأول ملك أرغون ٦٣٦) وشُقْر ٦٣٩ ودَانِية (٦٤١) وشاطِبة ٦٤٤، ومُرْسِية (صلحاً بيد ملك قشتالة فرناندو ٦٤١) وسقطت قُرطبة في مدة الخلاف بين ابن هود

وابن الأحمر ٦٣٣. وسقطت جَيَّان (٦٤٣) وإشبيلية (٦٤٦). وكانت مَيُورْقَة (من الجزائر الشرقية) قد سقطت في معركة مؤثّرة سنة ٦٢٧. ويرى الناظر إلى الخريطة الأندلسية أنها كانت تُطوى سريعاً، وأن الاستغلابَ يأخذ شكلاً مأساوياً لم يكن يتوقّعه ملوك الدول الإسبانية أنفسهم.

٤ ـ ظهور عدد من الثوار والمتغلبين في الأندلس انقضوا على ملك الموحّدين ورفعوا راياتٍ إقليمية فعادت الفتنة من جديد وتهيَّأت ظروف مُشابهة لعصر الطوائف السابق قبل قرنين من الزمان. وكانوا حُكّاماً ضِعافاً ليست لهم مقومات القادة: خلا لهمُ الجَوّ فنَعقُوا ولم يفلحوا في استنقاذ أمر الأندلس[1]، اللهم إلا ما كان من أمر بني الأحمر في غرناطة.

● في سنة ٦٢٥ خرج محمد بن هُود الجُذَامِيّ في نواحي مُرْسِية، ودخلها مستولياً عليها من صاحبها أبي العباس الموحّدي، وخطب للخليفة العباسي، وبايعتْ لهُ قرطبة وإشبيلية وشاطبة وغيرها مدةً قصيرة، ومات سنة ٦٣٥.

● صارت بَلنسية إلى أبي جميل زيان بن مدافع بن مَرْدَنِيْش الجُذامي بعد أن طرد السيّد أبا زيد الموحّدي،

---

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (أشباخ) ترجمة محمد عبد الله عنان: ٣٩٩.

وبقيت في يده إلى أن احتلّها ملك أرغون خايمي الأول، على الرغم من محاولة ابن مردنيش الاستنصار بالأمير الحفصي صاحب تونس على يد كاتبه ابن الأبار.

● وفي سنة ٦٢٩ قام محمّد بن الأحمر بحصن أُرجُونَة (من أعمال قرطبة)وتنازع مع ابن هود إمارة الأندلس وكانت بينها وقائع ومناوَرات سياسية، انتهت بعد موت ابن هود (٦٣٥) ومبايعة غرناطة لابن الأحمر واستقراره فيها، كما سنبين.

٥ ـ ظهور ملوك أقوياء في الدُّول الإسبانية المجاورة، مع استقرار الحكم في أيديهم، وتطاول مدتهم، مع التّصميم على استغلاب الأندلس، وتعاونهم على ذلك. أضف إلى ذلك المُساعدات العسكرية والبشرية المستمرة التي كانت تفد عليهم من البلاد الأوروبية[1].

٦ ـ تَحمُّل المغرب والأندلس للخطوب الكثيرة الأخرى، فمنها: قلة عدد السكان، وخصوصاً المحاربين منهم بسبب الحروب المتكاثفة، وبسبب عدد من الهزائم الشّنيعة التي انتصرت فيها الدول المجاورة لغرناطة. ومنها إصابة الناس

---

(١) المصدر السابق ٤٤١ ـ ٤٤٥. وانظر مقدمة الحلة السيراء لابن الأبار (الدكتور حسين مؤنس: ص ٢٥ على الخصوص).

بالأوبئة والطواعين كما في عام ٦١٠[١]. ومنها تناوب سنوات القحط والجدب والجراد والغلاء في أثناء هذه الأزمة السياسية العسكرية كما هو الحال في سنوات ٦٢٣، ٦٢٤، ٦٣٠، ٦٣٥[٢].

دولة غرناطة في ظل بني الأحمر:

خرج محمد بن يوسف (المعروف بابن الأحمر) في أرجونة سنة ٦٢٩. وهو من أسرة تُعرف ببني نَصْر، وببني الأحمر. وينتهي نسبهم إلى الصحابي الجليل سعد بن عُبادة الأنصاري. وكان خروجه ـ كما سلف ـ في مدة تهاوي سلطان الموحدين؛ فدعا لنفسه، وخالف ابن هود، فأطاعته بيَّاسة ووادي آش ونواحيهما، وخَطب للمُستنصر الحفصي وأطاعته قرمونة وقرطبة وإشبيلية حيناً ثم عادت إلى ابن هود، وتفاهَم ابن الأحمر مدة مع ابن هود لما جاءه التأييد من الخليفة العباسي.

وفي رمضان ٦٣٥ ثار أهل غرناطة بوالي ابن هود عليهم وهو عُتبة بن يحيى المغيلي، وخرج وفدٌ استقدم ابن الأحمر ونصبه أميراً على غرناطة، وما انضم إليها من مَوْسَطةِ الأندلس وجَنُوبها مما شكل دولة غرناطة التي قاومت ببسالة وشجاعة

---

(١) الاستقصا للناصري ٢: ٢٦٢.

(٢) الاستقصا للناصري ٢: ٢٦٤.

قرنين ونصف قرن من الزمان. وكان موقف ابن الأحمر حرجاً، وكان في الوقت نفسه يضطرم بحماسة وطنية ودينية غير أنه لم يستطع أن يقف في مواجهة تيار الهجمات القشتالية ـ الأرغونية ـ البرتغالية دون التضحيات الجسام. ففي سنة ٦٤٣ هادن ابن الأحمر فرناندو الثالث ملك قشتالة واضطر لأن يترك له عدداً من المدن والحصون كأُرجُونة وجَيّان[١]. ومن جراء الهدنة معه كانت إشبيلية فريسة سهلة وسقطت سنة ٦٤٦. بينما كان ابن محفوظ المُتَولّي نظرَ بعضِ جهات الغرب قد تنازل عن عدد من الحواضر الهامة مثل طَلْبِيرة والعُلى وشِلْب. وتتالت الأحداث بعد ذلك على غرناطة بين مسالمة بني الأحمر لقشتالة وتحالفهم معها وبين المدافعة ومحاولة استرداد بعض المفقود من أرض الوطن. ففي ٦٦٠ هَزَم ابن الأحمر غزوة نصرانية على أراضيه، بمعاونة مطّوعة قدمت من المغرب[٢]. وسقطت مدينة إشْتِجَة سنة ٦٦٢ بتنازل صاحبها ابن يونس لملك قشتالة[٣]. واشتد ضغطُ القشتاليين على غرناطة بقيادة صهر ملكهم دون

---

(١) في نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (م. عنان) أن ابن الأحمر تعهد أيضاً بالانضواء تحت طاعة فرناندو وبحضور مجلس الكورتيس (شبيه بمجلس النواب). وهذا يعني الطاعة والولاء. وانظر دراسته حول الموضوع ص ٣٠ وما بعدها من الكتاب المذكور.

(٢)، (٣) انظر نهاية الأندلس (م. عنان): ٣٣ ـ ٣٠.

نونيودي لارا، فكتب أبو العَبّاس العَزَفِيّ يستصرخ قبائل المغرب لإنقاذ الأندلس. وأنشد أبو الحكم مالك بن المُرَحّل قصيدة مؤثرة لاستنهاض الهمم تُليت في مسجد فاس مطلعها[1]:

استنصرَ الدينُ بكم فأقدِمُوا ... فإنّكُم إن تُسْلِمُوه يُسْلَمُ
لاذَت بكمْ أنْدَلُسٌ ناشِدَةً ... برحِم الدِّين ونِعْمَ الرَّحِمُ
لا تُسْلِمُوا الإسلامَ يا إخوانَنا ... وأسْرِجُوا لِنَصْرِهِ وألْجِمُوا

واستردت غرناطة مدينة شَرِيش بعد حملة بني مرين التي أنجدت الأندلس سنة ٦٦٢. وبعد ضغوط قشتالة بايع ابنُ الأحمر للمستنصر الحفصي صاحب تونس، ولكنّ هذه الخطوة لم تؤدّ إلى أن ترفع الضغط عن غرناطة.

ويرى الأستاذ عنان في تاريخه أنه لما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم لم يرَ ابن الأحمر مناصاً من أن يخطو خطوة جديدة في مُهادنة ملكهم ومصادقته فنزل له أواخر سنة ٦٦٥ عن عدد كبير من المدن والحصون منها شريش والمدينة والقلعة[2]. وقدَّر صاحب الذخيرة السنية جملة ما تنازل عنه بنحو أربعين مُسَوَّراً من المُدُنِ والحصون[3]، وقيل مئة!.

---

(١) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية لابن أبي زرع الفاسي: ٩٨.
(٢) نهاية الأندلس: ٣٦.
(٣) الذخيرة السنية: ١١٢.

ولما أعطى ابن الأحمر البلاد المذكورة للألفونش (ألفونس) قال الفقيه أبو محمد صالح بن شريف الرُّندي يرثي بلاد الأندلس، ويستنصر بأهل العُدوة من مرين وغيرهم بهذه القصيدة:

لكل شيء إذا ما تمَّ نُقصانُ
فلا يغرَّ بطيبِ العَيْشِ إنسانُ[1]

وعلى رغم هذه التّنازلات والمُعاهدات، فقد كان الضغط على دولة غرناطة كَبيراً، وقد هاجَم ألفونس العاشر (القشتالي) البلاد الأندلسية سنة ٦٧١ فاستنجدَ ابنُ الأحمر بالمرينيين. وتوفي في العام نفسه؛ وأوصىٰ ابنه محمداً (الفقيه) الذي ولي بعده بأن يصل يده بيد المَرينيّين. وقد تم اللقاء بين النصريين والمرينيين. وعبر السلطان المريني أربع مرات في أثناء حكمه لمساعدة الأندلس والجهاد فيها. وهُزم القشتاليون بعد هذا التحالف عدداً من الهزائم أهمها في إسْتِجَة ٧٧٤. وترك المرينيون حامية مغربية دائمة في الأندلس تحت رعاية قائد منهم عرف بِشَيْخِ الغُزاة. وأول من تقلد هذا المنصب عبد اللّه بن أبي العلاء، وبقيت مشيخة الغزاة في أسرة بني العلاء. وعلى الرغم من أن العلاقة بين بني نصر وبني مرين

---

(١) المصدر السابق: ١١٢.

لم تكن دائماً خالصة من المشكلات الجانبية[1] فإن الصورة العامة هي استردادُ الأندلسِ لعهدٍ من الثبات والقوة فقدته منذ زمن بعيد. وحكمَ محمد الفقيه حتى سنة ٧٠١.

حال المشرق:

وإذا التفتنا نحو المشرق في هذه المدة وجدناه يعاني من الحملات الصليبية التي استهدفت عدداً كبيراً من أقطاره مع التركيز على بيتِ المقدس، في حرب ضَرُوس. وقد تصدّى لها الزنكيون والأيوبيون من بعدهم، ثم انتهت المهمة على يد المماليك، فانقطع أمل الأوروبيين بعد ذلك.

دخل الصليبيّون بلاد الشام، وعليها حكّامٌ من السَّلاجقة المتفرّقين على بُلدانها الرئيسية؛ فاحتلوا أنطاكية والرها، وامتدوا إلى القدس وغيرها من البلاد. ولم يلبث أن ظهر بنو زنكي في الموصل والجزيرة الشامية، وكان أشهرهم عماد الدين ونور الدين «اللذين بدآ عملية منظمة لحرب الصليبيين وتصفيتهم»[2].

---

(١) مثل ترتيب قضايا (الغزاة) المجاهدين المرينيين في الأندلس، ومشكلة أصهار بني الأحمر في مالقة (بني أشقيلولة) الذين دخلوا مع أقاربهم النصريين في خلافات داخلية.

(٢) انظر تاريخ الشعوب الإسلامية (كارل بروكلمان) ترجمة فارس وبعلبكي (الطبعة الخامسة) صفحة ٣٤٧. وراجع الصفحات التالية.

وظهر في دولة الزنكيّين صَلاح الدّين الأيُّوبي «مع مجموعة من أسرته هو أشهرهم». وحصلت مصر في يد نور الدين زنكي، وكان قائده ومبعوثه فيها هو صلاح الدين الذي سعى لإلغاء الخلافة الفاطميّة وصارت مصر جزءاً من دولة الزنكيين الممتدة ما بين أطراف العراق والشام ومصر، مُروراً بأجزاء من فلسطين. ومدَّ صلاح الدين نفوذه بالاستيلاء على اليَمن. وآلَ الأمر بعد حوادث كثيرة إلى أن ترأس صلاح الدِّين الدولة، وتولى محاربة الصليبيين فانتصر في حطين، وفتحَ القُدس سنة ٥٨٣ واسترد معظم ما بأيديهم من القلاع والمدن[1].

وتولى بقيةُ الأيوبيين الذي تعاقبوا بعد صلاح الدين (توفي سنة ٥٩١) مهمّة محاربة الصليبيين. وتم القضاء عليهم في أيام المماليك بشكل نهائي.

أما الخلافة العبّاسية فقد سقطت سنة ٦٥٦ هـ حين وصلتْ هجمة المغُول إلى بغداد، مروراً بأقطار الشرق الإسلامي حيث عاثوا فساداً، وخرَّبُوا كثيراً من معالم الحضارة الإسلاميّة. غير أن جيوشهم قوبلت بالهزيمة الساحقة في عين

---

(١) في رحلة ابن جبير نص هام عن تقدير الرحالة الأندلسي لشخصية صلاح الدين، وتشبيهه بعض أمراء الفترة هناك بملوك طوائف الأندلس ـ راجع الرحلة (ط دار صادر): ٢٥٤.

جالوت سنة ٦٥٨ على يد جيوش السلطان قُطز بقيادة بيبرس. وكان المغول بدؤوا غزوهم للشرق الإسلامي في مطلع القرن السابع ناشرين الخراب والدمار حيثما حلوا وسلكوا. وكانت ذروة أعمالهم إسقاط الخلافة وخراب بغداد. وفي الواقع كان سلطان الخليفة متقلّصاً على الصعيدين السياسي والعسكري منذ زمن بعيد.

* * *

الحياة الاجتماعية

كانت الأندلس في أوائل القرن السابع ما تزالُ ولايةً تابعة للدولة الموحدية. فلما كان الانهيارُ والانحدارُ قام الطّامحون والطامعون، واضطراب حبلِ السّياسة والاستقرار بظهور بني هُود وبني مَرْدَنِيْش وبني الأَحْمَر وغيرهم. ولم يستطع أحد من المتوثّبين أن يجمع شملَ الأندلس تحت رايته. أما محمد بن الأحمر فقد احتفظ بما أمكنه من الأندلس، ولكنه كان قليلاً بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل ربع قرن. وضمت الأندلس الباقية الجزء الجنوبي الشرقي من جنوبي الوادي الكبير إلى الجزيرة الخضراء وامتدّت مشرقاً بين مدينة بَسْطَة وثغر المَرِيَّة، وغرباً حتى شَذُونَة في ولاية قادِس. وشملت مملكة غرناطة ثلاث ولايات هي ولاية غَرْنَاطة وقاعدتها مدينة غَرناطة، وولاية المَرِيَّة في الشرق، وولاية مَالَقَة في الجنوب.

وقد صارت غرناطة ـ بعد سقوط الأمصار الكبرى ـ عاصمة الدولة وحاضرتها واتّسعت مساحتها وكثُر سكانها وازدهرت

بالأعمال والصنائع، وبرزت بين مدن الأندلس الباقية. ولقيت عناية أمراء بني الأحمر واحداً بعد واحد، وخلدت آثاراً لا تزال إلى اليوم شاهدة بحضارة عريقة.

وقد ازدحمت غرناطة واتسعت بمن وفد إليها واستقر بها من أهل البلاد الأندلسية التي سقطت في أيدي الإسبان[1]. فعلى الرغم من المعاهدات والمواثيق التي كان تتمّ بين الأندلسيين المغلوبين وخصومهم، فإن الهجرة والنزوح كانت الضمان الوحيد للأندلسيين للاحتفاظ بلغتهم ودينهم وحريتهم[2].

ومع ذلك فإننا نسجّل هنا ظاهرة أخرى، وهي الهجرة من الأندلس إلى المغرب في بلدانه المختلفة من أدناه إلى أقصاه. وقد وصَل عددٌ من الأندلسيين ـ وخصوصاً أهل العلم والثقافة ـ في هجرتهم إلى المشرق.. وعلى كل حال فإن تقدير بعض الباحثين أن «مملكة غرناطة كانت تضم في عصورها الأخيرة زهاء خمسة أو ستة ملايين من الأنفس. وكانت غرناطة وحدها تضم أكثر من نصف مليون نفس. وكانت الأمّة الأندلسية عندئذ خليطاً من أعقاب العرب والبربر والمولدين أو المسلمين الإسبان الذين أسلموا عند الفتح»[3].

---

(١) انظر نفح الطيب ٤: ٥١٠.

(٢) نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (م. عنان): ٤٨.

(٣) المرجع السابق.

وكانت العُروبة تغلب على السكان المدنيّين في مملكة غرناطة ولا سيما بعد أن نزح إليها على إثر سقوط القواعد الأندلسية في يد النصارى كثير من سادة البطون العربية القديمة.

وازدهرت في دولة غرناطة حضارة رفيعة تناولت الجوانب المتعددة في العلوم والآداب والصنائع والعمران، بالإضافة إلى استمرار التقاليد الزّراعية والتجارية على نشاطها ونموها. ولم يكن يضعفها غير الاضطراب السياسي والمعارك التي تنشب بين الفريقين، وعلى الرغم من أن الأصل في العلاقة بين غرناطة وجوارها هو الحرب والقتال، فقد كانت هناك معاهدات تجارية تقوم بين غرناطة وبينهم «وكانت العلاقات التجارية أيام السِّلم تجري بانتظام»[1].

(١) نهاية الأندلس: ٥٧.

الحياة العقلية

تزخر كتب التراجم الأندلسية ـ لهذا القرن السابع ـ بالعدد الجم من أسماء العلماء والمهندسين والأدباء والفقهاء والمحدثين والأطباء وغيرهم. وقد تفرق علماء البلدان الأندلسية المحتلة في البلاد، فأكثرهم أوى إلى مدن مملكة غرناطة، وانتشر قسم منهم في أقطار المغرب الإسلامي ومشرقه.

وقد لا يقع الملاحظ على طفرات علميّة كبيرة في مدة دولة غرناطة، غير أن الأمر الذي لا شك فيه هو أن الحياة الفكرية والحضارية كانت استمراراً أميناً لما وصلت إليه في العصر الموحّدي السابق، مع محاولات دائمة لإبقاء نسغ الحياة متجدداً متطوراً، في كلا الجانبين العملي التطبيقي والنظري الفكري.

وظلت السّمات العامة للحضارة في غرناطة سمات إسلامية أندلسية تتميز بطابعها الخاص. أما وجوه المَشابِهِ

التي لاحظها ابن خلدون بين الأندلسيين والإسبان في زمانه فقد جاءت متأخرة، وهي مشابه تتعلق بالملابس والأسلحة والعادات إلى أشياء أخرى ذَكَرها.

وقد استمرت العلوم الشرعية والإسلامية بعامّةٍ على مستواها الرفيع وظهر عدد كبير من العلماء الذين تابعوا أمور الفقه والتفسير والحديث والأصول. وخرَّجت علوم اللغة العربية وآدابها رجالاً ما زالت شهرتهم متصلة إلى اليوم. أما الشّعر فبقيت له مكانة عند أصحاب الشأن ـ على الرغم من اضطراب الأمور العامة ـ وبقيت في الشعر الأندلسي روح الشعر الرَّفيع وأصالة الشعراء المتمكّنين. وظهر رجال في علوم الطبّ والهندسةِ والنّبات والصَّيْدلة، كما نبغَ جغرافيون ورحالة ومؤرخون عرفهم المشرق نفسه، وقدرهم منازلهم من التكريم. ولعل هذا الاستمرار الحضاري ناشىء عن أن المُصاب الأندلسي الفادح في خسران الأرض وانحسار السيادة لم يصل إلى استِهلاك الحضارة وانحدار المدنيّة. كما أن المستوى الذي وصلوا إليه حتى عصر الموحّدين لم يكن حضارة قشريّة زائفة تضيعُ عند أول هزّة أو أدنى اختبار. ويبقى السؤال مطروحاً عن هذين الوجهين المختلفين، وقد يكونان أحياناً متناقضين: أحوال الأندلس السياسية ـ العسكرية من جهة، وأحوالها الحضارية والثقافية من جهة أخرى.

فمن المُحَدّثين المشهورين في القرن السابع: أبو الربيع

سالم بن سليمان الحِمْيريّ الكلاعي البلنسي (٦٣٣)، وأبو الحسن علي بن محمد بن القطّان (٨٢٧) وابن خَلفون الأزدي الأُوْنَبي (٦٣٥). [نسبة إلى مدينة أونبة].

واشتهر من المؤرخين بنو سعيد، ومنهم صاحب كتاب المُغرب في حُلى المَغرب[١] بالإضافة إلى مؤرخين من المغرب اتصلوا بالأندلس وأرَّخوا لها كعبَد الواحد المراكشي صاحب المُعجب، وابن عِذَاري صاحب البيان المُغرب[٢].

ومن الجغرافيين أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبَيْر (٦١٤) وأبو محمد العَبْدَرِيّ. ولهما رحلتان مشهورتان. ومنهم علي بنُ سعيد الوارد ذكره في المؤرخين أيضاً. ولمحمد بن عمر السبتي (المشهور بابن رُشيد) رحلتان اثنتان إلى المغرب، وإلى ديار الأندلس[٣].

ونبغ في إشبيلية أسرة بني زُهر في الطب على الخصوص، بالإضافة إلى نشاطهم العلمي والأدبي. ومن أطباء هذه المدة المشهورين أحمد بن مفرِّج الأموي الشهير بابن الرومية (ت ٦٣٧). ومن علماء النبات ابن البَيْطار المولود في مالقة ٥٩٣، والمتوفَّى بدمشق ٦٤٥. وظهر علماء

---

(١) طبع في القاهرة في جزأين (تحقيق د. شوقي ضيف).

(٢) والكتابان مطبوعان أيضاً.

(٣) راجع تاريخ الفكر الأندلسي: ٢٦٢ وما بعدها.

في الهندسة والرياضيات، كأبي بكر محمد بن أحمد الرَّقُوطي (٧٤٤).

أما الأدباء والشعراء فكانوا جمهرة وفيرة تدل عليهم كتب التراجم العامة وكتب التراجم الأدبية التي خلفها هذا العصر مثل: المُغرب لابن سعيد، وصلة الصّلة لابن الزبير، والمُعْجِب للمرّاكشي والمُعْجَم لابن الأبّار وغير ذلك من كتب كثيرة غزيرة.

وكان في جملة الشعراء المشهورين: ابنُ الأبّار وابن سهل الإشبيلي وأبو البَقاء الرُّندي وحازِم القَرْطَاجَنِّي. كما أن الموشح والزجل كانا فنَّين رائجين، وإن كان الموشح قد تراجع على الصعيد الشعبي أمام تقدم فن الزجل بعد نبوغ ابن قُزمان ومَدغَلِّيس. وفي كتاب (المُغرب) نماذج هامة من الموشحات والأزجال لرجال هذا العصر.

وفي هذه المدة نفسها «القرن السابع» نجد حركة النقد الأدبي نشيطة، متابِعة لما سبق. ونقف في هذا المجال عند شخصيتين نقديتين هما: حازِم القَرْطاجني صاحب كتاب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» وأبو البقاء الرُّندي صاحب كتاب «الوافي في نظم القوافي» وقد وصل إلينا الكتابان. ويعد كتاب «حازم» من أهم كتب النقد الأدبي في الأندلس والمشرق.

الفصل الثاني

حياة الرندي

اسمه وكنيته:

هو صالحُ بن يزيد بن صالح بن موسى بن علي بن شريف، النَّفزي، مِن أهل رُنْدَة[1].

ويكنى أبا الطيّب، وأبا البقاء. والحق أن ابن الخطيب في الإحاطة لم ينقل عن أحد ممن ترجموا له أنه يكنى بغير أبي الطيّب. وأول من ذكره بكنية أبي البقاء ـ بالإضافة إلى كنيته الأخرى ـ هو المقّري في نفح الطيب. وقد ذكره عدة مرات في النَّفحِ والأَزْهار واختار من شعره، ونقل قصيدته في رثاء الأندلس. ولا بد من الافتراض أن للرُّندي كنيتين عُرف بهما[2]. ويبدو أن شيوع كنية أبي البقاء[3] في المشرق والمغرب جاءت بعد المقري الذي ذكر تلك الكنية مرّة واحدة في كتابه، ويرجح عندي أن (أبا الطيب) كانت الأشهر في زمانه.

---

(١) ترجم له ابن الزبير في صلة الصلة، ونقل عنه ابن الخطيب في الإحاطة وابن عبد الملك في الذيل والتكملة (بقية السفر الرابع): ١٣٦ ـ ١٣٩. وابن الخطيب في الإحاطة (مخطوطة الإسكوريال: ٣٧). وذكره صاحب الذخيرة السنية حين ذكر قصيدته في رثاء الأندلس. والمقري في نفح الطيب، وأزهار الرياض (في مواضع عديدة).

وانظر بروكلمان Brock. S1 860, SII, 925.

(٢) راجع مقالة الأستاذ عبد الله كنون عن الرندي في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية المجلد ٦ العدد ١ ـ ٢ الصّفحة ٢١٢.

(٣) يكثر أن يكنى بأبي البقاء من يسمى بـ (خالد).

وفي خبر أورده الرندي[1] عن أحد أبناء الأمراء المسمى أبا سعيد بن نصر أنه كان سمع أبياتاً غزلية للرُّندي فأعجب بها. واتفق أن ورد الشاعر على والده الأمير النصري فمدحه بقصيدة جمع فيها أبيات الغزل تلك إلى أبيات في المديح، فظنّ أبو سعيد بن نصر أن هذا الشاعر ـ وقد نسي أنه هو صاحبها ـ سرق الأبيات. فقال الرندي قصيدة مرتجلة يعتذر فيها ويوضح ويبين الموقف، ومن القصيدة الجديدة:

منكَ القَبولُ ومنّي اليومَ معذِرَةٌ
إلى عُلاكَ ولا ذَنْبٌ ولا لَمَمُ
أنا أبو الطيّب الثّاني لِمُنْتَقِدٍ
وأنتَ سيفُ المَعالي الأوحَدُ العَلَمُ

نسبته:

ينتسب الرندي إلى قبيلة نَفْزَة، وهي من قبائل البربر. وينتمي إلى مدينة رُندة. قال في الروض المعطار[2] إنها «من مدن تاكُرُنَّا. وهي مدينة قديمة بها آثار كثيرة، وهي على نهر يُنسب إليها». كما نقل ابن سعيد في (المُغرب) أنها أحد معاقل الأندلس الممتنعة، وقواعدها المرتفعة. وقد كانت في

---

(١) الوافي (نسخة تيمور باشا: ٦٤ ـ ٦٥).

(٢) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) للحميري: ٧٩.

أيام الدولة المروانية في منطقة ثورة عمر بن حفصون ودار حَوْلَها خِلافٌ ونشبت معارك في أيام ملوك الطوائف حتى حصلت في يد بَني عبّاد. وبقيت رُندة في جملة دولة غرناطة الإسلامية الباقية إلى أواخر أيامها(١).

مولده ووفاته:

ولد في محرم سنة إحدى وست مئة، وتوفي عام أربعة وثمانين وست مئة. قال ابن الخطيب «نقلت من خط صاحبنا الفقيه المؤرخ أبي المحاسن بن الحسن ـ أمتع الله به ـ قال أنشدني الشيخ الراوية الأديب القاضي الفاضل أبو الحجاج يوسف بن موسى بن نعمان المَشاقِري، قال أنشدني القاضي الفاضل أبو القاسم بن الوزير، قال أنشدني شيخي الأديب أبو الطيب صالح بن أبي خالد يزيد بن صالح بن شريف الرندي لنفسه لتكتب على قبره:

خَلِيليَّ بالوُدِّ الّذي بينَنا اجْعَلا إذا مِتُّ قَبْرِي عُرْضَةً للترحُّم
عَسىٰ مُسْلِمٌ يَدنو فيدعُو برحمةٍ فإنِّي مُحتاجٌ لـدعوةِ مُسْلِمِ(٢)

---

(١) انظر: الروض المعطار: ٧٩، والمغرب لابن سعيد ١: ٣٣٤ ومعجم البلدان ٣: ٧٣.
ودائرة المعارف الإسلامية ـ مادة رندة.
وقد سقطت رندة في يد الملكين الاسبانيين بخدعة سنة ٨٩٠ هـ.

(٢) الإحاطة (ترجمة الرندي).

أسرته:

لا نجد في كتب التراجم حديثاً عن أسرته وأولاده، ولا نعرفُ من اشتهر من أهله بعده. غيرأننا نعرف أن له ابناً يدعى أبا بكر قد توفي صغيراً (ابن ٨ سنوات). وقد رثاه بأكثر من قصيدة في كتابه الوافي. وقال الرندي في مقدمة قصيدة أنشدها في المغرب (بَرّ العُدوة) إنه يتشوق إلى الأهل والوطن، ولكنه لم يُفَصِّل في ذكر أهله. وله قصيدة في رثاء والده، ذكرها في الوافي.

مشيخته:

قال ابنُ عبد الملك[1]: «روى عن آباء الحسن: أبيه، والدباج، الفخار الشريشي، وأبي الحسين بن قطرال، وأبي القاسم بن الجد التونسي». وقال ابن الزبير - كما نقل لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة - حين ترجم له «تكرّر لقائي إياه، وقد أقام بمالقة أشهراً - أيام إقرائي، وأنشدني كثيراً من شعره». وكان صاحب الذيل والتكملة (ابن عبد الملك) معاصراً للرندي، فاستجازه، قال: «وكتب إلي بإجازة ما رواه وألّفه وأنشأه نظماً ونثراً».

أما شُيوخ الرُّندي فهم من أعلام العصر في فنون مختلفة

---

(١) الذيل والتكملة (بقية السفر الرابع): ١٣٧.

فأبو الحسن الدَّباج كان من أهل الفضل والصلاح، مقرئاً، محدثاً، متقدماً في العربية والآداب، ويقرض قطعاً من الشعر يجيد فيها. وهو توفي ٦٤٦[١]. وابن الفَخّار الشريشي كان عارفاً بالحديث حافظاً للفقه والآداب، وهو استُقضِيَ برُندة، والجزيرة الخضراء، وتوفي سنة ٦٤٢[٢]. وبقية شيوخه ممن تحدثت كتب التراجم عنهم بالعلم والفضل والتقدم[٣].

ويبدو أن الرندي تلقى علومه واستكمل ثقافته في مدينة رُندة. وأنه عندما تنقل وترحل عن بلده كان قد ثبت على قدم في العلوم والفنون راسخة، حتى عرف له معاصروه فضله ومكانته.

رحلاته وتغربه عن رُندة:

كانت للرُّندي رحلاتٌ وأسفارٌ إلى أنحاء الأندلس الباقية في عصره، وأكثر رحلاته وأسفاره كان إلى الحاضرة «غرناطة». فقد نقل لسان الدين أنه «كان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها يسترفد ملوكها، وينشد أمراءها. والقصيدة التي أوّلها:

* أواصِلَتي يَوْماً وهاجِرَتي ألفا *

---

(١) المصدر السابق (السفر الخامس، القسم الأول) ١٩٨.

(٢) المصدر السابق: ١٨٥.

(٣) وانظر أيضاً الذيل والتكملة (الخامس ـ الأول): ٢٤٦.

أخبرني شيخنا أبو عبد الله اللوشي الكاتب أنه نظم باقتراح السلطان، وقد أوعز إليه ألا يخرج عن بعض بساتين السلطان حتى يكملها، في معارضة «محمد بن هانىء الإلبيري»[1].

وكانت له رحلة ـ أو أكثر ـ إلى المغرب، لا نَدْرِي متى كانت على التحديد، غير أننا نجد في جملة قصائده المبثوثة في كتابه «الوافي في نظم القوافي» قصيدة يحن فيها إلى الأندلس. قال[2] «ومما يتعلق بذلك ـ يعني باب الوصف ـ قولي وأنا بِمَرّاكُش:

بحياةِ ما ضمَّت عُرى الأَزْرارِ
بِذِمامِ ما في الحُبِّ من أسرارِ
بالحِجْرِ، بالحَجَرِ المُكَرَّمِ، بالصَّفا
بالبَيْتِ، بالأَرْكانِ، بالأَسْتارِ
باللَّهِ إلاّ ما قَضَيْتَ لُبانَةً
تَقْضِي بها وطَراً من الأَوْطارِ
وتكفُّ من أشجانِ صَبٍّ يَشْتكي
جَوْرَ الزّمانِ وقِلّةَ الأَنْصارِ

(١) ومطلع قصيدة ابن هانىء:
أليلتَنا إذا أرسَلتْ وارِداً وَخْفا
وبتنا نَرى الجوزاءَ في أُذنها شَنْفا

(٢) الوافي في نظم القوافي ـ نسخة الرباط ص ٣٩.

بلِّغْ لأندلسِ الزّمانِ وَصِفْ لها
ما بي منَ آشواقٍ وبُعدِ مزارِ
وإذا مررْت برُندَةٍ ذاتِ المُنى
والرّاحِ والزيّتون والأزهارِ
سَلِّمْ على تِلكَ الدّيار وأهْلها
فالقومُ قومي والدِّيارُ ديارِي

وذكر الشاعر لنفسه قصيدة في كتابه روضة الأنس ونزهة النَّفس[1] قالها بالعُدوة متشوّقاً إلى الأندلس والأهل والوطن، يقول فيها:

يانَسيماً هبَّ من أندلسٍ فتلقَّت طيبَهُ ريحُ النَّعامى
ما امْتَرى ناشِقُه لمّا سَرَى أنَّهُ فضَّ عن المسكِ الخِتاما
آهِ من شَوقي لقومٍ ما جَرى ذِكْرُهمْ إلا جَرى دَمْعِي سِجاما

وذكر الرُّندي خبر اجتماعه بالشيخ الفقيه أبي علي القصري بمدينة سبتة ومذاكرته إياه في ضروب من الآداب[2].

جوانبه واهتماماته:

تنوّعت جوانب الرُّندي واهتماماته، وتعددت. فهو ـ كما ظهر من تراجمه ومما ترك من مؤلفات، وما وصل إلينا من

(١) روضة الأنس: ١٧.
(٢) الوافي في نظم القوافي (النسخة التيمورية): ١٢٢.

أسماء بعض مؤلفاته الأخرى ـ كان أديباً، فقيهاً، مشاركاً. وامتدت اهتماماته لتشمل معظم جوانب الثقافة الأدبية والدينية لعصره. فقد كان شاعراً، وأديباً مؤلفاً، وناقداً. ومن جهة ثانية كان فقيهاً، محدّثاً فرضِيًّاً، مقدَّماً في رجال القرن السابع المعدودين ـ فهو ـ على الرغم من تعدّد اتجاهاته، واتساع جوانبه ـ ذو مكانةٍ خاصة في معظم تلك الجوانب التي طرقها.

شخصية الرُّندي:

تجتمع لدى الدّارس من أخبار الرُّندي ومما يجده في كتبه صورة واضحة تقريباً لأخلاقه وتدّينه، ومكانته في عصره وعلاقاته بمعاصريه، واتجاهاته. وكانت الأوصاف التي أسبغها عليه ابنُ الزُّبير، وابنُ عبد الملك المراكشي، وابن الخَطيب كافية لإعطائه صورة الأديب الفقيه الشاعر، ذي المكانة المرموقة في عصره. ففي ترجمة ابن الزبير له أنه كان بالجملة معدوداً في أهل الخير، وذوي الفضل والدين. وعند ابن عبد الملك أنه «كان خاتمة الأدباء بالأندلس، بارع التصرف في منظوم الكلام ومنثوره، فقيهاً، حافظاً، فرَضيًّاً مُتَفنّناً في معارف شتى، نبيل المنازع، متواضعاً، مقتصداً في أحواله».

وقد كان الرندي ممن يستطيع أن يُحسن الصلة بينه وبين أهل الفكر، وأصحاب الدولة من الأمراء الحكام والوزراء

المتنفذين، ومَن كان في ساحتهم. وساعده علمه وشاعريته على تقريبهم له واستنشادهم من شعره.

وهو جَمع إلى هذه الصفات الخلقية الطيبة ورعاً وتديناً ومراقبة تشهد بها تراجمه، وقطع باقية من أشعاره. فمن شعره في غرض التوحيد[1] قوله:

ما بالُنا نَغْتَرُّ بالأذْهانِ ونغرُّها بمطالبِ البُرهانِ
ونقيسُ كي نَدْرِي لكلِّ عِلَّةً ونرومُ شيئاً ليسَ في الإمكانِ
ونرومُ مَعرفةَ الإلهِ وإنَّما نَبغِي الكمال بغايةِ النُّقصانِ!
ونُريدُ نفهمُ سِرَّهُ في عالَمٍ لو شاءَ كان على نظامٍ ثانِ
ومن المحال تصوُّرُ الإنسانِ ما مُنِعَتْهُ قوّةُ عالَم الإنسانِ
ما في الوجودِ إذا أردتَ حقيقةً إلاّ الإلهُ وكُلُّ شيءٍ فانِ

وله من قطعة أخرى:

أشارَ إليكَ جُميعُ الوجودِ بأنَّكَ أوجَدْتَهُ من عَدمْ
وقامَ بأمرِكَ من غيرِ شَيْءٍ ولولاكَ ياسيِّدي لم يَقُمْ[2]

صلته بدولة بني نصر:

سبق القَول إن الرُّندي وُلد في أوّل القرن السابع. فهو نشأ وشب في ظل أواخر دولة الموحدين، وشهد الاضطرابات

---

(١) روضة الأنس ونزهة النفس: ٥.

(٢) المصدر السابق: ٤.

المريعة التي مَرّت على الأندلس بعد هزيمة العقاب الشنيعة سنة ٦٠٩، وهلم جرّاً إلى أن استقر الحال بالأندلس في القسم الباقي تحت ظل بني نصر المعروفين ببني الأحمر في مملكة غرناطة. وكانت (رُندة) في جملة المدن الباقية.

ويظهر لي أن اتصال الرُّندي بالأمير النصري لم يكن قبل استقرار الأمور له بعد سنوات من الكفاح لوقف المد الخارجي الطامي.

وتدل القصائد الباقيات من شعره في بني نصر على أنه كان لهم بمثابة شاعر القصر ومناسباته المختلفة. فهو يهنىء بالأعياد والانتصارات، ويشارك في المواسم والمناسبات. وهو يرثي من يُتوفّى من الأسرة أيضاً.

وطرَّزَ الرُّندي كتابه (روضة الأنس ونزهة النفس) باسم الأمير النصري أبي عبد اللّه محمد بن نصر[1]. فهو الشاعرُ المعتمَدُ، والثقة الذي يسمحون له بالدخول إلى القصر الملكي ومتنزهاته، فقد ذكر في الإحاطة أن الأمير أدخله الحديقة الملحقة بالقصر وطلب إليه ألا يخرج منها قبل إتمام قصيدته في معارضة محمد بن هانىء الإلبيري[2].

---

(١) روضة الأنس: ١. والأظهر أنه قدمه للأمير محمد الأول.

(٢) الإحاطة (ترجمة الرندي).

وقد لَخّص لسان الدين بر الخطيب علاقته ببني نصر بقوله في الإحاطة إنه كان كثير الوفادة على غرناطة والتردد إليها يسترفد ملوكها وينشد أمراءها[1]. ويكون الرندي بهذا شاعر مديح، ومناسبات، اختص بالبيت النصري، فشهد عهد الأمير الأول محمد، وعهد ابنه من بعده محمد الفقيه إلى أن توفي في زمانه.

علاقته بأدباء عصره:

كان من الطبيعيّ لشاعرٍ ـ اتصل بالقصر اتصالاً مباشراً ـ ومؤلف متعداد المواهب، وناقد أدبي متصدر لهذا الفن؛ أن تكون له صِلاتٌ وثيقةٌ بعدد من أدباء عصره، وتكون بينه وبينهم مراسلات وندوات ولقاءات. والمعلومات ـ على كل حال ـ عن هذه الناحية في تراجمه الباقية قليلة. غير أننا استفدنا الكثير من الأخبار والملاحظات الشخصية العارضة التي تلقى المطالع في كتابَيْ الرندي الباقيين: «الوافي في نظم القوافي»، و «روضة الأنس ونزهة النفس».

وحدثنا أبو جعفر بن الزبير المحدث المؤرخ الأديب أنه تكرر لقاؤه أبا الطيب الرندي بمالقة، وأنه سمع من أشعاره الكثير[2].

---

(١) الإحاطة (ترجمة الرندي).

(٢) الإحاطة ـ نقلاً عن صلة الصلة (ترجمة الرندي).

وطلب ابن عبد الملك المراكشي إجـازته[1] فلبىّ رغبتـه، وبعث بها إليه.

وكانت بينه وبين بعض أدبـاء غرنـاطة مسـامرات وصـلات ومناقشات. فمنها ما ذكـره في الوافي[2]: «كتب إليّ صـاحبنا الوزير الأديب أبو العباس بن بلال الجزيري رحمه اللّه:

ألـمِـمْ إذا شئـتَ تَـحْـظى بـصـالـحٍ وشَـريـفِ
بـصـالـحِ بـنِ يـزيـد بْـنِ صـالـحِ بـنِ شـريفِ

فكتب إليه:

أهـلاً ببـرِّ سـرّني وجَـلا لي مـا شئـتَـهُ من رفعـةٍ وجَـلالِ
حُسْنُ اطّرادٍ في قريضٍ باهرٍ نُظِمَتْ به الأسْماءُ نَظْمَ لآلِ

وله مراسلة شعرية أخرى مع الوزير الجزيري[3].

ونقـل مختارات من أشعـار أصحابـه في الـوافي، وعـرّفنـا بصـداقته لهم وصلتـه بهم مثل الفقيـه أبي الربيـع بن حبيب، والفقيـه أبي عمرو بن أبي العـافية. كمـا ذكر أبـا الحجّاج بن الشّيخ المالقي وابنه بما يوحي أنه يعرفهما معرفة مباشرة.

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الوافي في نظم القوافي (النسخة التيمورية: ١٧).

(٣) المرجع السابق: ١٢٤.

وأوْرَد قطعةً لنفسه، وعقّب بمعارضة معاصر له لتلك القطعة، وهو الكاتب أبو بكر النجّار الإشبيلي[1]. وتحدث عن مذاكرة بينه وبين بعض الإخوان[2] في قضايا أدبية ولكنه لم يسمّهم.

مؤلفاته:

بقيت ـ إلى أيامنا هذه ـ مجموعة من آثار الرندي، بينما نقف على أسماء مؤلفات وآثار أخرى لا ندري أفي الضائع هي لا رجعة له، أم أنها في بطون الخزائن. وكتبه التي نعرفها أو نعرف لها اسماً هي:

١ ـ الوافي في نظم القوافي. وهو كتاب نقدي جامع، منه نسخ في القاهرة والرباط وليدن وغيرها [يصدر في سلسلة دراسات أندلسية].

٢ ـ روضةُ الأنس ونزهة النفس، وهو كتاب ثقافة جامع شبيه بكتب المعارف العامة كعيون الأخبار والعقد وأشباهها. ومنه نسخة ناقصة في مكتبة خاصة بالمغرب.

٣ ـ ديوانُ شعر، وهو مفقود، منه نقول مبثوثة في كتبه، وفي كتب التراجم وتاريخ الأدب الأندلسي. قال ابن الزبير إن

---

(١) الوافي (نسخة الرباط ٣٣).

(٢) (المرجع السابق: ٣٤).

كلامه ـ نثراً ونظماً ـ مُدَوّن[1].

٤ ـ وله (مقامات). نعرف اسمها فقط، وهي من المفقود[2].

٥ ـ كتابٌ في الفرائض[3]. وقد شرحه الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن محمد القرشي البسطي الشهير بالقلصادي[4].

٦ ـ جزءٌ على حديث جبريل[5].

٧ ـ تأليفٌ في العروض[6].

٨ ـ قال ابن الزبير أيضاً «وله تصانيف أدبية وقصائد زهدية» وسنعرض للموجود من كتبه بالنقد والتعريف.

* * *

---

(١)، (٢)، (٣) نقلاً عن الإحاطة «ترجمة الرندي».

(٤) نفح الطيب ٢، ٦٩٤.

(٥)، (٦) الإحاطة «ترجمة الرندي».

الفصل الثالث

أدبُ الرندي

سبق القول في ترجمة الرندي إنه كان أديباً، شاعراً، ناقداً، مُشاركاً؛ له اهتمامات بعلوم شتى. وسنعرض في هذا الفصل لدراسة جوانبه التي اشتهر بها، ووصلت إلينا آثار له فيها، وهي: شعره، ونثره، وآراؤه النقدية، على وجه الخصوص.

الرُّندي شاعراً:

١ـ كانت الحركة الشعرية في القرن السابع الهجري استمراراً لما كان في القرن السابق عليه من النشاط، وغزارة الإنتاج، ووفرة الشعراء، وعلو الطبقة. واتسم الشعر بالنفس القوي والأفق المشرف؛ فهو لم ينحدر انحداراً مماثلاً لضعف الأحوال العامة في البلاد. وكانت الأندلس لا تزال تنجب الشعراء المتقدمين كابن الأبار، وابن سَهْل الإشبيلي، وحازِم القَرْطاجَنّي، ممن وصلت إلينا دواوينهم الشعرية، ومثل أبي البقاء الرُّندي وابن سَعيد المغربي الأندلسي ممن وصل إلينا قدر صالح من أشعارهم.

وكان ما يزال في الأندلس ـ في أول القرن، وبعد استقرار الأمور لابن الأحمر في غرناطة ـ من يقدِّر الشعر، ويُثيبُ عليه، ويشجع أصحابه. وكان بعض أولي الأمر من الخلفاء

والوزراء والحكام يقرضون الشعر قليلهُ وكثيره، ويشاركون في الحركة الأدبية.

وكانت هناك حوافز مختلفة بحسب اختلاف الظروف وتنوعها وتشعبها في هذا القرن الشديد الاضطراب تدفع بالشعراء إلى نظم الشعر وإبداعه ثمرات القرائح وخلجات العواطف؛ سواء أكان ذلك مما يخص الشعراء أنفسهم وفي حياتهم، أم كان يخص الأمة في أحوالها المضطربة وظروفها القاسية.

وقد كان عدد كبير من كتاب الأمراء يقرضون الشعر[1]، ويقدمونه بين يدي مخدوميهم، فكثر لهذا شعر المديح والمناسبات: وسيكون هذا ظاهرة بارزة في القرن التالي حين نجد رؤساء الكتاب جميعاً من الشعراء، وبعضهم يقف في الشعر على قدمين راسختين.

٢ ـ وبعد أن استقرت الأمور في غرناطة ـ وما حازوه من الأندلس في نطاقها ـ اتخذوا لأنفسهم رسوم الملك، وأُبَّهة السلطان، واتخذوا الكتاب والحجاب والوزراء. وكانت الدولة تنعم بين الفينة والأخرى بهدوء نسبي يسمح للأمراء النصريين بالالتفات إلى البنيان والعمران، والأخذ بأسباب

(١) راجع ثبت كتاب بني الأحمر ووزرائهم في اللمحة البدرية للسان الدين بن الخطيب «طبعة الشيخ محب الدين الخطيب» ـ القاهرة.

الحياة الملوكية. وكان لا بد لدولة ناشئة ـ كهذه ـ من أن تُفيد من الخبرات والمواهب التي نبتت في ظلالها. وهكذا حصلت الصلة بين الرُّندي وبين بني نَصر.

٣ ـ لا نجد بين أيدينا من باقي شعره ما يدلّ على اتصاله في مرحلة شبابه الأولى ببعض الأمراء من الموحدين ـ ومدّعي الخلافة ومنتحليها ـ أو ببعض الثوار والمنتزين في أرجاء الأندلس بعامة أو في رُندة بخاصة. فقد كان في نحو الخامسة والعشرين من عمره عندما قام محمد بن هُود بدعوته، وبايعته معظم أطراف الأندلس مدة من الزمن، وانقضت دعوته بوفاته وهو في الخامسة والثلاثين. وقد ولّى ابن هود على مدينة رندة سنة ٦٣٠ أديباً شاعراً هو أبو بكر بن عبد العزيز الشهير بابن صاحب الردّ. وكان له دور بارز في الخروج بعد ذلك في قرطبة وتعيين ابن عمه الباجي (٦٣٠ ـ ٦٣٢) مخالفاً لابن هود ومستقلاً بالأمر. وكانت سِنّه بين العشرين والرابعة والعشرين حين احتدم الخلاف بين المتطلعين إلى الخلافة من الموحدين. فبعد مبايعة عبد الواحد (المخلوع) سنة ٦٢٠ بمراكش قام العادل بالأندلس. وبعد مدة يسيرة خرج أمير آخر هو المعروف بالبيَّاسي فدعا لنفسه وتحالف مع دول إسبانية، وكان يسلمهم البلاد والحصون، حتى قضى عليه أهل قرطبة ٦٢٤. ولكن أبا العلاء (المأمون) الموحدي قام ـ بعد سفر أخيه العادل إلى مراكش أميراً ـ فدعا لنفسه في الأندلس.

ونقل في (الوافي) أبياتاً في مدح الوزير أبي بكر بن أخيل لم يزد على أن قال فيه «من أهل بلدنا» يعني رُندة.

وقد أورد الرندي ذكر خليفتين من الموحدين بمناسبة تهنئة شاعر معاصر له للرشيد الموحدي في توليه الخلافة الموحدية بمراكش وتعزيته بوفاة والده المأمون، ولكنه حديث عارض لا يدل على علاقة تُستنتج بهم، قال: «ولم أر لأحدٍ متقدم أو متأخر (في اجتماع تهنئة وتعزية) كقول بعض أهل عصرنا يهنىء الرشيد بالولاية ويعزيه بأبيه المأمون:

هَنيئاً وإن كُنّا لحسنِ العَزا أوْلى
بملكِ الّذي اسْتَولْى وهُلكِ الذي وَلّى

وليس بين يدي ما يرجح صلته بالموحدين، صلة شاعر مادح بدولة مستقرة وأمير ممدوح.

وقد مرَّ في الفصل الأول أن ابن الأحمر قام سنة ٦٢٩ بدعوته وجاذب ابن هود أطراف البلاد حتى خلا له الجو بوفاته في المريَّة عند واليها من قبله ابن الرُّميمي.

وشعر الرندي الباقي يدل على اتصاله ببني الأحمر بعد مرحلة تكوين الدولة الجديدة، وتثبيت إطارها.

٤ ـ ويبرز الرُّندي في ظلال بني الأحمر شاعر بلاط، مداحاً، ذا صلة وثيقة بالدولة الفتية وأمرائها المحبين للشعر،

المتطلعين إلى قصائده فيهم، وأشعاره التي ينظمها في الأغراض الأخرى.

وهو شاعر مكثر، غزير الإنتاج، سهل العطاء، حاضر البديهة، وقد كان شعره مدوناً (مجموعاً في ديوان)، ولكننا لا نعرف إلى الآن في المكتبات المشهورة ديوان شعر له. وجوانب شعره متعددة، وأبرز أغراضه الشعرية: المديح، وشعر الغزل، والرثاء، ـ ومنه رثاء المدن والممالك ـ والوصف، والحكمة. وله مشاركة في أغراض شعرية أخرى. وقد نبه ابن الزبير إلى إجادته في غرضي المدح والغزل، وهي ملاحظة دقيقة.

أغراض شعر الرُّندي:

● **المدح**: يبرز غرض المديح في شعره لوفرة إنتاجه فيه، وارتباطه مدة طويلة بالبلاط النصري. وهو يذكِّرنا بشعراء المديح التقليديين الذين أخلصوا الولاء لدولة من الدول، واستمرّوا على ذلك الولاء إلى أواخر حياتهم. فهو اتصل بالأمير النصري الأول محمد بن يوسف (ت ٦٧١) وبابنه محمد الفقيه (ت ٧٠١) هـ فمدحهما، وتردد على غرناطة طويلاً في عهدهما.

ويتناول شعر المديح عنده القيام بمهمة شاعر البلاط الذي لا يغادر مناسبة دون أن يقول فيها شعراً ملائماً؛ فهو رفع

قصائده إليهم في المناسبات، والأعياد، والمواسم. واتصل غرض المديح ـ هنا ـ بما دعاه في كتابه الوافي: التهاني، حين أفرد له باباً مستقلاً. وتجد في شعره قصائد في تولية ابن الأمير ولاية العهد، وفي إعذار بعض أولادهم، وفي المديح عامة. وكأني بالشاعر يفد على غرناطة في أوقات ومواسم بأعيانها لا يدعها تفوته، إضافةً إلى وفاداته العارضة، واستدعاءات القصر لأغراض مختلفة.

وله قصيدة مطولة قالها معارضة لقصيدة المتنبي:

أَجَابَ دَمْعِي وما الدَّاعِي سِوى طَلَلِ
دعَا فَلبَّاه قبلَ الخَيْلِ والإبِلِ

وقد أنشدَ الرُّندي قصيدَتَهُ «لمّا بويع بالحضرة النصرية بولاية العهد الأمير المعظم أمير المسلمين أيده اللّهُ واقترن بذلك مولد ابنه الأمير المعظم أسعده اللّه...»[1] وقدم لها بمطلع غزلي رائق، ومن الغرض فيها:

يا يَوْمَ سَعْدٍ كأنّ العيدَ عادَ بهِ
فالنّاسُ في مَرحٍ والدَّهرُ في جَذَلِ
شاهَدْتُهُ فرأينا الأرْضَ قد بهرَتْ
والشّمس قد سترت وَجْهاً من الخَجلِ

(١) الوافي في نظم القوافي: ٣٧ «النسخة التيموريه».

ولــلطُّبــولِ بــهِ خَــفْــقٌ يُــســاجــلُهُ
خفقُ الـبنــودِ عـلى الخَـطِّيــةِ الـذُّبُــلِ
وكــلِّ أَشْــوسَ ســاجِي الـطَّرْفِ من أدبِ
يَـهــوي للثـمِ يــدٍ أَشْــهىَ منَ الأمَــلِ
ويـجتــلي غُــرّةً بــالبِــشْــرِ مُشـرقــةً
كمــا تجلَّتْ إيــاةُ الشّمسِ في الحَمَــلِ

فهــو يصف المشهـد وصفــاً تفصيليــاً يبين كيف احتفلت الدولة (رسمياً) بتولية الأمير ولاية العهد بين أصوات الطبـول المجلجلة وخفق الرايات في أيدي حامليها في عرض بـديع. وتستمرُّ القصيدة بعد ذلك ليشيـد بالأميـر العتيد، ويلتفت إلى والده (الحاكم) لإظهار مآثره وصفاته، وبيان عدله في الرعية، وجهاده في العدو، وتمكنه من السلطان، ووصف تعلق الناس به حاكماً ناجحاً. وفي آخر القصيدة:

ابـن الهُــمــام الــذي لَــهُ حُليٌ حــسنُت
بهــا الإمــارةُ حُسْنَ المــدحِ بــالغـزلِ
ومــنْ لَــهُ كَــرمٌ رِيشَ الــثــنّــاءُ بــهِ
فـطارَ حتّى سَرى في الأرضِ كــالمثـلِ

وتجدُ في مدائحه المعاني المطروحة عادةً في هذا الغرض فإذا كان الوالد أسداً فالابن شبل، ويد الأمير بحر فيـاض عند الجود، وسيفه قاطع بتار مخْضب بالدماء في الحرب، ونسب

النصرين في بيوت الشرف العربية[1]. وكان الشاعر يجتهد دائماً في أن تكون شخصيته الشعرية ظاهرة على محورين: أحدهما في حسن صياغة العبارة، وثانيهما في جدة تناول المعاني والقدرة على الغوص وراء الصور المبتكرة.

وله من قصيدة مدحية يصف فيها جيش بني الأحمر، فيه الأمراء منهم يقودونه ويخوضون به المعركة:

وكَتِيبَةٍ بالدَّارعينَ كَثِيفَةٍ
جَرَّتْ ذُيولَ الجَحْفَلِ الجَرّارِ
رَوضُ المنايا قضُبُها الشمسُ الَّتي
من فَوقِها الرّاياتُ كالأزهارِ
فيها الكماةُ بَنُو الكُماةِ كأنهمْ
أُسْدُ الشَّرى بين القَنا الخطَّارِ
مُتَهلِّلين لدَى الهِياجِ كأنّما
خُلقتْ وُجُوهُهمُ منَ الأقمارِ
من كلّ ليثٍ فوق بَرقٍ خاطِفٍ
بيمينهِ قَدَرٌ من الأقْدارِ
من كُلّ ماضٍ يَنْتَضيهِ مِثلهُ
فيَصُبُّ آجالاً على أعْمارِ

(١) الوافي في نظم القوافي: ٤٢ «النسخة التيمورية».

لبسُوا القلوبَ على الدُّروعِ وأَسْرَعُوا
بأكفِّهم نارٌ لأهْلِ النَّارِ
وتقدَّموا ولهُمْ على أعدائهمْ
حنقَ العِدىٰ، وحميَّةُ الأنصار

فالمعاني المدحية مما لا يستغربه القارىء أو يستجده دائماً، ولكن الانتباه يلتفت إلى الصياغة الجيدة، والصورة الجديدة، التي تعود بك إلى مدرسة ابن خفاجة التصويرية والتعبيرية.

وتجد الشاعر مقتدراً على الوصول إلى نفس المخاطب (من الممدوحين) وبلوغ ما يريد تبليغه من فكرة أو رأي أو طلب. وهو على كل حال يلحق بشعراء المديح الذين يقبلون الأعطيات والهدايا، وإن لم نجد له طلباً صريحاً للعطاء، ولكنك تجد مثل قوله:

إذا ما ضاقت الدُّنيا بِحُرٍّ كَفاهُ لثمُ كفِّك، والسلامُ!

أو قوله في قطعة أخرى:

ولئن رَجْوتُ فإنّ مِثلك يُرتَجىٰ
ولئن سألتُ فإنَّ مِثلكَ يُسألُ

فعلى الرغم مما يظهر من الروح التكسبية، فإنك تحس بأن الأمر يعدو هذا إلى أهداف أخرى كتثبيت المكانة

عندهم، والاحتفاظ بالوجاهة، وإبراز الشاعرية...

وقد أوتي الشاعر قدرة على حسن مخاطبة الأمراء، والممدوحين بعامة مما ينبىء عن شخصية شاعر متمكن، دمث، يحسن التأتي، ويعرف المداخل إلى الأمور والمخارج منها.

ولا بد ـ ونحن نستعرض شعر المديح عند الرُّندي ـ من أن نقف عند عدد من الملاحظات التي تبدو للدارس من خلال علاقة الشاعر بالممدوحين، ومن خلال شعر المديح نفسه في مقاصده، ومعانيه، وشكله؛ وما يتصل بذلك من أمور.

فالعلاقة بين الرندي وبين الأمراء النصريين ورجال دولتهم المعدودين تماثل ما نعرف من علاقات الشعراء بحكام الدول وأمراء المناطق فيما سبق عند المشارقة والأندلسيين، فالدولة في حاجة إلى الشاعر الذي يتحدث عنها ويذيع المآثر والمناقب ويقوم بدور «أجهزة الأعلام» وللشاعر مقاصده أيضاً.

ولا ننسى أن الرندي في تقرُّبه إلى النصريين ومدحه لهم كان يعكس اتجاهاً سياسياً لدى أهل مملكة غرناطة. فقد كان

استقدام ابن الأحمر وتأميره برغبة من الأهالي وعن رضى تام.

وتشيع في قصيدة الرُّندي المدحية معاني المديح المألوفة في الشعر العربي، بالإضافة إلى الجوانب والإضافات الخاصة التي تلونها بلون أندلسي، غرناطي أحياناً. ومن أهم الأمور التي يطرحها شعر المديح مشكلة السلطة (وهي في يد بني نصر برضا الجمهرة) وقضية العدوّ (إذ حلها الأمراء النصريون بالحرب حين الاقتضاء، والسلم ـ حين يكون ذلك أجدى ـ بحسب نظره) يقول مثلاً:

وهُم منحُوا الجزيرةَ منْ حماهُمْ جِواراً لا يُذمُّ ولا يُضام
فمن حَرْبٍ تشيبُ لها النّواصي ومن سِلْمٍ: تحيتهُ سلامُ!

وقضية الأهلية لاستمرار السلطة في الأسرة النصرية: (ولاية العهد). بالإضافة إلى ركائز المديح الأثيرة من كرم المحتد، والجود، والبأس في الحرب، ونشر العدل في الرعية، إلى غير ذلك من معان.

ولا يحس قارىء شعر المديح عنده بأنه يشبه شاعراً متكسباً يتهاوى على مطامعه الشخصية كبعض صور التكسب عند عدد كبير من شعراء دول الطوائف. ويتصل بهذا المعنى ما تجده من اقتراب شعر المديح من الإخوانيات اقتراباً واضحاً. ولعل الخط الواصل بين المديح والإخوانيات هو

المنطقة الوسطى التي سماها (التّهاني) مما يخص المناسبات الشخصية، والاجتماعية المختلفة، كالتهنئة بالإبلال من مرض، أو العودة من سفر، أو الاحتفال بزواج. . . الخ. وقد انتبه الرندي في (الوافي) إلى أن هذا الباب مُسْتَغْرَقٌ عند الشعراء في خلال الأغراض الأخرى. وكان من الطبيعي ألا يفرده النقاد في رؤوس الأغراض الشعرية.

فمن ذلك «قوله في تهنئة بقدوم من سفر»:

يا ليلةَ الأنسِ كم أدْنَيت من أَمَلٍ
أشهى وأعذبَ من أمنٍ على وَجلِ
وكم تَعللَّتُ باللُّقيا على شَغفٍ
وفي التعلُّل ما يَشفي من العِلَلِ
ما زلتُ يبسُطني وَجدي ويقبضُني
طوراً ويَشفعُ لي شوقي إلى خَجلي
حتى بلغتُ مُنىً ما كنتُ أحسبُها
ومِن ألذّ المنى حُبٌّ بلا عذلِ
ولا كيومِ لقائي للوزير أبي
بكرٍ وقد عادَ عَوْدَ الحليِ للعَطلِ
لِلَّهِ من وافدٍ سَرَّت وفادتهُ
مبارك السَّعي في حلٍ ومرتحلِ. . .

وقد عرفنا من أسماء الممدوحين في شعره الباقي لدينا

مجمداً (الأول) والأمير محمداً الفقيه (الثاني) وأبا عمرو بن المرابط، وأبا بكر بن يحيى.

وقد جَعل الشاعر قصيدة المديح عرضة لأغراض أخرى. فأكثرها يبدأ بالغزل، وهو يستغرق عادة قسماً هاماً من القصيدة. وقد يخرج في أثناء المديح، ولأدنى سبب، إلى استطالة وصفية تلائم الحال أو تتصل بمعنى من معاني المديح المطروحة. وكأن الشاعر بهذا يريد أن يخفف من حدة الخطابية، أو المباشرة، أو الاستغراق وراء الغرض المدحي.

وتُظهر لك القصيدة المدحية إعجاب الممدوحين بشاعرهم وثقتهم به؛ إذ يقترحون عليه معارضة شعراء يعينونهم، وقصائد يختارونها، من الشعراء الفحول والقصائد المشهورة. وهي تظهر من جهة أخرى مقام الشاعر عند نفسه. فكثيراً ما كان يختم قصائده بذكر شاعريته وإتقانه صنعته، كقوله:

وخذ إليكَ حليَّ فصَّلتها حُللاً
الفضل فيها لتلك المكرمات ولي!

وقوله في، من قصيدة أخرى:

خُذها إليكَ أبا بكر مهنئةً
أزهى من الحُسن في أبهى من الحللِ

عـذراء قد بـانَ فيها عُـذر حاسِـدهـا
إذ غـازلَ الـمـدحَ فيهـا رِقَّـةُ الغـزلِ

وقد بقي غرض المديح ـ في أغراض الشعراء الأندلسيين ـ متقدماً في القرن السابع. وظهرت طبقة من الشعراء في القرن الثامن لا تقل مقدرة وأهمية، ممن يتوجه إليهم الحديث في مجال آخر إن شاء اللّه.

الغزل

تنبه معاصرو الرُّندي إلى أنه برع في غرض الغزل ـ بالإضافة إلى المدح ـ. وهي ملاحظة صحيحة، ويُحسُّ القارىء أن الشاعر يجوده ويسترسل فيه.

ويشغل الغزل حيزاً واسعاً في شعره، فهو أفرد له القصائد والمقطوعات، وجعله استهلالاً لبعض الأغراض الأخرى، وبخاصة منها المديح.

وأول ما يلاحظه قارىء شعره الغزلي أنه شاعرٌ مقتدر على تناول الموضوع، واسعُ الباع فيه، خبيرٌ بالمعاني الغزلية، مستحضر للألفاظ المناسبة الملائمة. ويعطيك شعره صدق المحب المدنف، والمجرب العارف، وتتعانق فيه العبارة الرشيقة الأنيقة مع المعاني اللطيفة الرقيقة، وتجتمع له حرارة شعراء البداوة الشفافة الساذجة إلى أناقة شعراء الحضارة الباذخة المترفة.

ولا يغيب عنك ـ وأنت تقرأ شعره هذا ـ ما فيه من لمسات إنسانية عميقة، وقدرة مكينة على التغلغل إلى الأعماق؛ في استشراف لما فيه واستشفاف دقيقين. ويلحق بذلك ما تشهده من قدرته على تصوير المواقف، سواء أطال في التعبير أم اجتزأ واختصر: فمن شعره الغزلي قوله:

قطَّع قلبي بصدِّهِ قِطَعا ... وإنّما ضرَّني وما ائتفَعا
وغَرَّني أوّلاً بِوَصْلتِهِ ... وعندَما لذّ وصلُهُ قطَعا
ومَرَّ عنّي لمّا شكوتُ لهُ ... كأنهُ ما رأى وما سَمِعا!
واكَبِدي! لو تُفيد (واكبدي) ... لم يَترُك الدهرُ فيه لي طمَعا
يا ليتَ قلبي الذي وَهْبتُ لهُ ... يَرْجِعُ لي اليومَ كيفَما رَجعا!

والشعر الغزلي الذي بين أيدينا من تراثه يوحي بأنه غزل يمكن أن يوصف بأنه (عام). ذلك أنك لا تجد فيه امرأة بعينها أو اسماً مقصوداً. ولكن هذا لا يُغَيِّبُ الإحساس بصدق التجربة وأصالة الشاعرية.

ولا تكاد تجد للشاعر قصيدة غزلية يخلص فيها الحديث للغزل وحده، فإنه سرعان ما يخرج عن الموضوع الأصيل إلى موضوعات جانبية أخرى، تتّصل لا شك بروح القصيدة وتشتبك مع مقصدها، ولكنها تشعرك بأن القصد الغزلي في القصيدة مشوب بتطريزات جانبية تلطف من حرارته، وتظلل نصاعته.

والموضوعات الجانبية التي تُداخل الغزل، هي من نوع مُشاكل، مُساعف. كالوصف بعامة، أو وصف الخمرة بخاصة. وقد يكون الخروج عن الغزل إلى الوصف مقصوداً، لهدف آخر هام عنده، هو الوصلُ بين أجزاء القصيدة وغرض المديح كما في قصيدته المدحية:

أَلِثَامٌ شَفَّ عن وَرْدٍ نَدِ   أم غَمامٌ ضحكتْ عن بَرَدِ
أمْ على الأزْهارِ من حُلّتها   بَدْرُ تمٍّ في قَضيبٍ أملدِ
بأبي لِينٌ لهُ لو أنّهُ   نُقِلتْ عطفتُهُ للَخَلدِ
ولا وَأَلحاظٍ لهَا ساحِرةٍ   نفثَتْ في القَلْب لا في العُقَدِ
لا طلَبْتُ الثَّأر منها ظالماً   وأنا القَاتلُ نفسِي بيَدي
نظرتْ عيْني لِحَيني نظرَةً   أخذتْ رُوحي وخلَّت جَسَدي

ثم يخرج إلى وصف الخمرة:

هاتِها باللّهِ في مَرضاتها   قهوةً فيها شفاءُ الكَمدِ
عُصِرت باللُّطف في عَصْر الصّبا   فرمتْ بالمسكِ لا بالزَّبَدِ
ما دَرى مُديرُها في كاسِها   ـ وهي مثلُ البارقِ المتَّقدِ ـ
دُرَّةٌ ضُمَّت على ياقوتةٍ   أم لجينٌ فيه ذوبٌ عسجدي
سَقِّني غيرَ مُليمٍ ياقوتةٍ   حَنَفيُّ الرأيِ والمُعتقَد!
لا أرى بالسُّكر إلا مِنْ هوىً   أو هِباتِ الملكِ المؤيَّدِ...

فهو يمزج في الغزل بين وصف المحبوبة، وذكر الأشواق

إليها، والمكابدة من (ظلمها). ويخرج إلى ذكر الخمرة بقصد (الشفاء) مما يعاني. وينسطرد في حديثها إلى أن يصل إلى المقصود الرئيسي من كل ذلك في الدخول (الحسن) إلى الممدوح. والأبيات متماسكة متداخلة، والأغراض متساوقة منسجمة فيما بنيها. أما العبارة فتشيع فيها الرقة، والأناقة. ولا يغيب عن الأذن الموسيقى التي تلف القصيدة وتعطيها طابعاً مميزاً.

وإذا عدنا إلى حديث (حرارة) الغزل وجدنا أن هناك أسباباً أخرى تُطامن من الغزل الصَّاخب الذي تبدأ به قصائده الغزليات، وتميل إلى الهدوء شيئاً فشيئاً حتى تستوي عند حد معين. ولكن هذا يؤدي بالقارىء إلى الإحساس بأن الشاعر يُتقن شعر الغزل، ويُزَيّنه. وأن شعر الغزل هذا يعبر عن (حَنين) الشاعر إلى صَبوات الماضي (البعيد أو القريب) أكثر مما يعبر عن فوران داخلي آنِيّ. وقد يُخَيّل إليه أحياناً أن (الفن) أغلب من أي عنصر آخر. ولكن الشاعر في شعره الغزلي يعبر ـ باستمرار ـ عن خلجات الإنسان ونوازعه العميقة بيسر، وبمعرفة خبير.

فمن قصائده الغزلية التي لم يصلها بمدح قوله:

عَلِّلاني بذكرِ تلكَ الليالي وعُهودٍ عَهِدْتُها كاللآلي
لستُ أنسى للحُب ليلةَ أُنسٍ صالَ فيها على النَّوى بالوصالِ

غَفلَ الدَّهرُ والرقيبُ وبِتنا فَعجِبنا من اتفاقِ المُحالِ
ضمنا ضمَّة الوشاحِ عناقٌ بِيمينٍ معقُودةٍ بشمالِ
فبَرَدْتُ الحشا بلثْمِ برودٍ[1] لم يزل بي حَتّى خبالي خَبالي
وكؤوسُ المُدام تجلو عَروساً أضحك المزجُ ثغرها عن لآلِ
وبنحر الدُّجا ذوابِلُ شمعٍ عكست في الزُّجاج نور الذُّبالِ
والثُّريا تمدُّ كفاً خَضيباً أعجمَت بالسماك نون الهلالِ
وكأن الصَّباح إذ لاح سيفٌ يُنتضى من غين وميم ودالِ
ومَسَحنا الكرى إلى غانياتٍ غانِياتٍ بكل سحر حلالِ
في رياضٍ تبسَّمَ الزهرُ فيها لِغَمامٍ بكَتْ دموعَ دلالِ
وجَرى عاطِرُ النَّسيم عليلاً يَتهادىٰ بين الصَّبا والشَّمالِ
فاكتسىٰ النَّهْرُ لَأمةً منهُ لمَّا أنْ رَمى القَطْرُ نحوهُ بِنبالِ
يا ليالي مُنىً سَلامٌ عليها أتُراها تَعُودُ تلك اللَّيالي؟!

فبعد أن ذكر الشاعر لياليه الماضية، واسترجع أيامه الخوالي استطرد ـ لأدنى سبب ـ إلى مجلس ضمه مع الحبيب، وخرج إلى ما لابس المجلس، والتفت إلى الطبيعة حوله في الأرض والسماء، ولولا البيت الأخير الذي لفت الذهن إلى الموضوع الأصلي ووصل أوله بآخره لكان استغراق الوصف أغلب على الأبيات. وعلى الرغم من

(١) البَرُود: كل ما بَرَدَ به شيءٌ كالشراب يبرد به العطش والكحل تبرد به العين. وحديث الشاعر هنا عن الثغر.

السلاسة، والتناسق بين الشكل والمضمون فإن اصطناع الشاعر لعدد من ضروب التنميق البلاغي والتحسين اللفظي ملاحظ واضح. وهو اصطناع يدل على يدٍ ماهرةٍ؛ تخفي ما يرافقه عادة (وعند الشعراء المتأخرين) من آثار جانبية على سلامة المعنى ونصاعة التعبير. وقد تغلب الصنعة على بعض النصوص فتؤثر على حرارة العاطفة؛ ولكن هذا في شعره الغزلي قليل.

وللمقطوعات الشّعرية الغزلية «موقف» خاص، فهو يعبر فيها عن موقف نفسيّ تبلور في صيغة مختصرة. ولعل المقطوعة عنده أكثر قدرة على التعبير عن حقيقة مشاعره وخلجاته من مقدمات القصائد المطولة؛ كما في قوله من مقطوعة:

يا سالبَ القَلب مِنّي عِندَما رَمَقا
لم يُبْقِ حُبّكَ لي صَبْراً ولا رمَقا
لا تسْألِ اليومَ عمَّا كابدَتْ كِبدي
ليتَ الفِراقَ وليتَ الحُبَّ ما خُلقا
ما باخْتياريَ ذُقْتُ الحُبَّ ثانيةً
وإنَّما جارَتِ الأقْدارُ فاتَّفَقا
وكنتُ في كَلَفِي الدَّاعي إلى تلَفِي
مِثْلَ الفَراشِ أَحَبُّ النَّار فاحْتَرقا

يـا مـنْ تَجلَّى إلى سِـرِّي فَصيَّـرني
دَكّاً، وهَـزَّ فُؤادي عـنـدمـا صَعِقـا
أُنْـظُر إلـيَّ فـإنَّ الـنـفسَ قـد تـلفـتْ
وارفُقْ عَليَّ فـإن الـروُّحَ قـد زَهِقـا!

ولا يخفى مـا في الأبيات من المـوقف العـاطفي العميق، والتعبير الجميل الذي ابتعد عن الصنعة المغرقة وإن لم يبتعد عن الأنـاقة والاختيـار. أضف إلى ذلك مـا في تلوين أسلوب الخطاب من تأثير في النفس وقدرة على الإقناع بالموقف.

ويبقى (الغَـزل) من أهم الأغراض الـدالـة على شـاعـريـة الرُّندي، وشعره، في روحه وأساليبه، وإبداعه الفني.

الوصف:

يشيع موضوع الوصف في شعر الرندي، فهو يلوِّن قصائده المطوَّلات، ويستقلّ بقصـائد خـاصة، وينفـرد بمقطَّعـات غير مطوّلة أيضاً. وقد اهتم الشاعر بهذا الموضـوع، وأحلَّه منزلـة هامة في القصيـدة. وقد سبَق أن قصيـدته المـطوّلة التقليـدية (وخصـوصـاً في المـديح) كـانت تتناول الغـزل والـوصف والغرض الأصلي أو المنظور إليه أساساً.

وهكذا يكون (الوصف) مناسباً للمقام المـطروح فيه، فهـو في أثناء القصائد يقدم أوصافاً ملائمة، جـارية مـع نسقها، أو

مستطردة ـ لأدنى ملابسة ـ بينما نجده في المقطّعات أكثر حرية في تناول الموضوع الذي يحب. ويكثر ـ في المقطعات ـ أن يكون الوصف لأشياء تتصل بأمور الحياة، وما هو في متناول الشاعر القريب.

أما وصف الطبيعة الأندلسية ـ والغرناطية بخاصة ـ فأمر يشيع في شعره كله: في المطوّلات وفي المقطّعات. ويتبع ذلك ما كان من وصف الأزهار، والثمار، والخمرة، وضروب الرياحين المختلفة. ويلاحظ قارىء كتابه (الوافي) أن اختيارات المؤلف من أشعار معاصريه في وصف الطبيعة كثيرة فاشية. وهذا يفسر ما نذهب إليه من تفشي المدرسة الخفاجية في وصف الطبيعة، ومن انتشار طريقته في التصوير والتعبير أيضاً[1].

فمن شعر الوصفي قوله يصف الليل وجملة أمور مناسبة:

ولَـيْـلَةٍ نَـبَّـهْـتُ أجْـفـانَـهـا
والـفجْـرُ قـدْ فَـجَّـر ضـوَء الـنَّـهـارْ
والـلَّيْـلُ كـالمـهـزومِ يَـوْمَ الـوغى
والشُّهُب مثـلُ الشُّهـبِ عنـد الْـفِـرارْ
لـذاكَ مـا شـابَتْ نَـواصِي الـدُّجـا
وطـارحَ الـصُّـبـحُ أخـاهُ فـطَارْ

(١) الوافي في نظم القوافي «النسخة التيمورية»: ص ٧٥ ـ ٧٦ مثلاً.

وفـي الـثُّـريـا قـمَـرٌ سـافِـرٌ
عـن غُـرّةٍ غـيَّـر فـيـهـا الـسِّـفـارْ
كـأنَّ عُـنـقـوداً بـهِ مـائـلٌ
إذ صـارَ كـالعُـرجـونِ عنـدَ السِّـرارْ[1]
كـأنـمـا تـسـبِـكُ ديـنـاره
وكـفُّـهـا تـفـتـلُ مـنـه سـوارْ
كـأنـمـا الـصُّـبـح لِـمـشـتـاقـهِ
عـزٌّ غِـنـى مـن بـعـد ذُل افـتِـقـارْ
كـأنـمـا الـشَّـمسُ وقـد أشـرقـتْ
وجـهُ أبي بـكـر بـن يـحـيى أنـارْ!

فالوصف هو الوجه الأصلي المستفاد من الأبيات، ولكن الشاعر استغله في البيت الأخير ـ في قدرة على الاستفادة ـ في موضوع المديح.

وتكثر الأوصاف في شعره لتتناول صغير الأشياء وكبيرها، في تلفت الشاعر المدقق الذي ينظر فيما حوله بعيني مصور. متردداً بين وصف الأمور التي سُبق إلى وصفها ومحاولة الوقوع على أشياء لم يُسبق إليها، والأكثر أن يعرض للطبيعة، وما يراه حوله من أمور.

---

(١) العُرجون من النخل كالعنقود من العنب. والسّرار. آخر ليلة في الشهر (القمري).

.فهو وصفَ الجيش الجرّار والسفينة. كما وصف الطبيعة، سواء في رسم المناظر العامة، أم في الإكباب على الاهتمامات الصغيرة المركزة كالنرجس والحَبَق والتفاح، وغير ذلك من أزهار وثمار.

قال في وصف السُّفن في البحر:

سفائن تسبحُ في لُجَّة كأنّها صَوافِنٌ[1] تلعَبُ
من أدهمٍ تهفو شراع به كأنّ صُبحاً [دونه] غَيْهبُ
إذا جَرى من خلفِه مُلحماً فلاحقٌ لعتقِه ينسبُ
وأشهبٍ صُوِّرمن عنبر وأين منه العَنبر الأشهبُ
وأسحمٍ يدعى غراباً وما ينعقُ بالبَين ولا ينعبُ

وهو ـ على الرغم من تناوله معطيات حضارية بيئية ـ لم يخرج في عمله الوصفي عن إسباغ صفات مألوفة في الشعر العربي لوصف الخيل وغيرها. فكأن العملية الشعرية تعتمد على (تركيب) ما يخص الفرس والغراب بما يناسب وصف السفن وهذا يخفف من نصاعة العمل الفني ويذهب بالكثير من جدته.

والوصف من الأغراض التي تظهر فيها العملية الشعرية

(١) الصافن: الفرس إذا قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة وقصد الشاعر مطلق الخيل.
ـ والغراب (في البيت الخامس) نوع من السفن الصغيرة.

عند الرندي بوضوح، سواء أكان ذلك في المقطعات الصغيرة أم كان في القصائد المطولة. وهو يعتمد على «التشبيه» اعتماداً كبيراً، ويخيل إليك أحياناً أنه يُسرف في التشبيهات إسرافاً، ويتبع ذلك ـ ويُماثله ـ اعتماده على الاستعارة بأنواعها. ونجد في تطلبه للمعنى الغريب، وتصيُّده للصورة المبتكرة، وفي إعادة تكوينه لبعض الصور القديمة مشابه كبيرة تقرّبه إلى مدرسة ابن خفاجة في المذهب الفني بعامّة، وفي غرض الوصف بخاصة. وله من قصيدة يصف الليل:

كأن البَدْر تحت الغيم وجه عليه من مَلاحَته لثامُ
كأنّ الكوكبَ الدُّريَّ كأسٌ وقد رقَّ الزجاجَةُ والمُدامُ
كأن سطورَ أفلاكِ الدَّرارِي قسِيٌّ والرُّجومُ لها سِهامُ
كأنَّ مَدارَ قُطب بنات نعْشٍ نَدِيٌّ والنجومُ بهِ نِدامُ

وهو يأخذ من المعاني القديمة والصور التي سبق إليها الشعراء في محاولة تجديد مستمرة، أو يعتمد منهج بعض الوصافين المتقدمين أحياناً؛ ولا يغيب عن ذهن القارىء أن شيئاً من طريقة ابن المعتز قد تسرَّب إلى عدد من مقطوعاته القصيرة التي زخرت فيها التشبيهات بألوان الحضارة والألفاظ المتعلقة بالترف والجواهر وما إلى ذلك كقوله:

وجدْولٍ كُلّما مرّ النّسِيمُ بهِ كَساه دِرْعاً لها حَبابهُ حلقُ
حتى إذا انطبَعتْ ليلاً به شُهبٌ لم تَمْتَرِ العَيْنُ فيهِ أنّهُ الأُفُقُ

وكقوله ـ مما تلمح فيه شيئاً من طريقة ابن المعتز ـ

أما تَرى حُسْن هلالِ الأفقِ كالتّاج أو كالقَوْس أو كالزَّوْرَقِ
أو خَطّ نونٍ بمدادٍ ذهبٍ مُتَرْجَمٍ على زُجاجٍ أزْرقِ

ويظل الإكثار من (التشبيه) في القصيدة بعامة، وازدحامه في البيت الواحد أمراً مطلوباً عنده مرغوباً، كقوله في تشبيه سبعة بسبعة:

وصفراءَ لونِ التِّبْرِ قاسَمْتُها الهَوى
إذا ما بكيتُ الحبّ ليلاً بكتْ مَعِي
كَمِثْليَ في سُقمي ولَوْنِي وحُرْقَتِي
وصَبْرِي وتَسْهِيدي وصَمْتِي وأدْمُعِي

ويظهر في شعره الرندي الوصفي أثر العمل والصنعة؛ وعنصر المنافسة ـ مع المعاصرين ـ في الإجادة ومحاولة التفوق.

الرثاء:

أفرد الرندي في كتاب «الوافي» باباً خاصاً لغرض الرثاء؛ واستغله ـ كعادته في الأغراض الأخرى ـ في إيراد نماذج من شعره في الرثاء تعد أبرز ما بين أيدينا منه. ونجد شعره هذا في قسمين، القسم الأول منه خاص أُسَرِيّ، رثى فيه من

اتصال به من المتوفين من الأقارب، والقسم الثاني يتعلق برثاء بعض من اتصل بهم بسبب.

وفي الأول رثاؤه في ابن له (اسمه محمد وكنيته أبو بكر) وفي والده، وفي زوجته. وفي الثاني رثاؤه في الأمير النصري محمد (الأول) وفي مَنْ دعاه أبا بكر، ولعله الوزير أبو بكر بن يحيى الذي كان من ممدوحيه.

وتتخذ قصيدة الرثاء عنده منهجاً متقارباً، فهو يضمنها في العادة أموراً أربعة. أحدها: معان حِكَمية عامة في الدنيا، والحياة والموت، والفناء والخلود وأن كل شيء هالك إلا اللّه سبحانه وتعالى. والثاني: ذكر مآثر المتوفي وصور من حياته. والثالث التوجع والتفجع وأثر المصاب في نفس الشاعر. والرابع: التصبر والتعزي وما يلحق بذلك.

وتختلف المواقف النفسية بحسب اختلاف المرثي، فتجد في رثاء الأقارب حرارة اللوعة، وذوب النفس، ونضح العبارة عن مكنونات الشاعر ومشاعره. وتحس في رثائه للأمير محمد بارتفاع صوت الباكي دون أن تحس بانسكاب الدمعة. وينتقل الشاعر في القصيدة الرثائية من حاضره إلى ماض سابق كانت فيه للمرثي مآثر ومفاخر، وهو يطيل الوقوف عند الماضي مُستنجداً به لإثراء الحديث عن الحاضر. فمن شعره الرثائي قوله من قصيدة يرثي بها زوجته:

يــا بُــرْهــةً كــانَ فيهــا للمُنى أَمَــلٌ
ونُــزْهــةً للهَــوى والسَّمْــعِ والبَـصَــرِ
مَضَتْ مُضيَّ الصِّبــا عـني ولا عِــوَضٌ
ومَنْ يَقُــومُ مـقــامَ الشَّمْسِ والقَـمــرِ
عَهْــدي بــألفَـتِنــا والأنسُ يـنــظِمُنــا
بــطيبــةِ العَيْش نـظمَ السِّلكِ للدُّرَرِ
رُوحَين في جَســدٍ، سِــرَّيـن في خَـلدٍ
كمــا تَقـابــلَ أَهـلُ الخُلدِ في السُّــرُرِ
حتى رَمىٰ البَيْنُ شـخصَيْنــا فـفــرَّقنــا
كــمــا تَـفَــرَّق بـيـن الـعَـيْـنِ والـنَّـظرِ
يــالَيْتَنِي عنـدَمــا حُمَّ الحِمــامُ، كمــا
قــاسَمْتُهــا كَبِــدي، قــاسَمْتُهــا عُمُــري
فــإن تكنْ زهـرة من روضِهــا قُــطِفَتْ
فـقـلـمــا تُــمْـتِــعُ الأيــامُ بــالــزَّهــرِ
وإن تـكن دُرَّةٌ مـن سلكـهــا خُــطـفـت
فــالدَّهْرُ أَدْرَى بـمـا يَـسْـبِـي مـن الدُّرَرِ
يـا قلبُ صَبْـراً على مـاقـد فُجِعتَ بــه
فـلسْـتَ في دفــع مَقْــدُورٍ بـمـقـتـدرِ
لا تَـبْــكِ فَقْــدَ حَـبيـبٍ أنت تــابِعُــهُ
إذا مضىٰ البَعْضُ فـالبَـاقي على الأثـرِ!

فهو تذكّر زوجته ـ كما ترى ـ وتذكر أيامها الخوالي يوم أن كان الدهر مُساعفاً، حتى جاء الفِراق الأخير الذي لا لقاء بعده، وتفجّع وتوجع وفدّى، وذكر بعض مآثرها، ثم خلص إلى العزاء والصبر، في كلام مشوب بالحكمة. وللشاعر قصيدة أخرى في رثاء زوجته[1].

وفي رثاء ابنه أبي بكر تحسّ بحرارة اللوعة منذ البيت الأول، ويتكرر اسم ابنه (محمد) وكنيته (أبو بكر) ممّا يزيد في أثر القصيدة، ويعمقه، كقوله:

بُنيّ أبا بكرٍ، بُنَيّ أبا بَكْرِ
وماذا عسىٰ يُغني التعلُّل بالذِّكْرِ
ذَهْبتَ ذهابَ الصَّبْر عَنّيَ مُكْرَهاً
فوا أسفي ألّا لِقاء إلى الحَشْرِ
فإن كُنْتَ نجماً راغَ منه أفولهُ
فمَا لكَ لا تبدو مع الأنْجُمِ الزُّهرِ؟
وإن كُنْتَ زَهْراً جَفّ إذ أخلفَ الحيَا
فما لكَ لا تَحْيىٰ ودَمْعِيَ كالقَطْرِ

ويخرج الشاعر بعد أبيات أخرى في وصف أثر فقده في

---

(١) أورد قصيدة عينية في النسخة المغربية (الرباط) في موضع القصيدة الرائية من النسخة التيمورية.

نفسه، وشجاه من مصابه إلى التغني باسمه مرة أخرى، في تكرار مؤثر:

محمّدُ ما أَشْجىٰ فِراقَكَ لَوْعَةً
محمدُ ما أدْهىٰ مُصابَك من أَمْرِ
محمّدُ في قَلْبِي محمّدُ في فَمِي
لئن غابَ عن عَيْني فما غابَ عن فِكْرِي

وعنصر التسليم بقضاء اللّه والإذعان لمشيئته بارزٌ دائماً في قصائده الرثائية. وهذا وإن كان من الأحكام الإسلامية العامة، فإنه مرتبط بشخصية الشاعر ذات الجوانب الفقهية الدينية الواضحة.

وفي رثاء الأمير النصري محمد ـ التي بعث بها إلى الأمير الجديد من بلده رُندة ـ جمع الشاعر إلى رثائه المديح، فهي قصيدة محبوكة الطرفين بالغَرضين؛ العزاء بالمتوفى والاستقبال للحاكم الجديد. أما معاني الرثاء فيه فتدور حول شخصيته وخصاله وما قد سبق منه من أفعال عظام، وحول ما كان لوفاته عند الناس من أثر، فمن هذه القصيدة:

يا حسرة الدين والدُّنيا على مَلِك
قد كان حسبَهُما لو مُدَّ في الأجل
أصَابهُ من وراء الحُجبِ صائبة
إنَّ المَنُونَ لأرمىٰ من بَني ثُعَلِ

وزوال المُلكَ دهراً ثم فارقَهُ
وزال عنهُ وذاكَ الفخرُ لم يَزل

ومنها:

أصبحت فينا على حكم الردى خبراً
فكنت كالضيف أو كالطَّيْفِ والمَثَلِ
كأن وجهك لم يُشرِق لناظره
كالبدر في السعد أو كالشمس في الحَمَلِ
كأن كفَّك لم تُبسَط لآملِها
يوماً ولا عرضَتْ للجُود والقُبَل

وعلى الرغم من وجود معان مشتركة في قصائد الرثاء، ومنهج عام ينتظمها لديه عادة، فإن لكل قصيدة عنده جواً خاصاً بها، ومعاني فرعية تنت مع المناسبة، لتناسب الظرف.

أغراض أخرى:

شارك الرُّندي في أغراضٍ شعريّة أُخرى؛ مشاركةً جانبيّة، لم تكن من أصل اهتماماته، كالحكمة والهجاء.

أما الحِكمة فقد كانت تَرِدُ في شعره في أثناء الأغراض الأخرى في مُناسباتِ الفَواجع وقصائد الرثاء، أو في لحظات الاعتبار والزهد بالحياة الفانية. وأكثر ما نجده منها في قصائد

الرثاء كرثائه لبلاده الضائعة، ورثاء زوجته. وتبعاً لهذا فإن أهمّ ما يلتفت إليه شعره الحِكَميّ يتعلق بالحياة والموت، وتفاهة الدنيا، وحتمية الرُّجوع إلى اللّه. ويأنس الشاعر في أثناء ذلك بزوال مُلك الملوك وامّحاء سلطان المتنفذين وسَرَيان حكم الموت على كل حي:

إذا كان أمرُ اللّه للمرءِ طالِباً
فقدْ هانَ مطلوبٌ وقد عَزَّ طالبُ
ألا إنما الدُّنيا خَيالٌ وأهلُها
بها عَرَضٌ والدهرُ بالكُلّ لاعِبُ...

ويسترسل الشاعر في وصف الدنيا الزائلة ـ فالقابض عليها لا يلوي على شيء ـ ويصل إلى مخاطبة (البطّال) الذي تغره الدنيا فينسى الحقيقة:

ألا أيُّها البطّالُ كم أنتَ غافلٌ
كأنك عن هذي المشارب غائبُ
ألا فانْظُر الدُّنيا بعينٍ بَصيرةٍ
فللتّركِ يا مغرورُ ما أنتَ كاسبُ!
ألم ترَ أنّ الموتَ أكبرُ شاهدٍ
على أنّهُ لا يَغْلِبُ اللّهَ غالِبُ؟

وهو يركّز على زوال العز عمن يظن الناس دوام العز لهم

كالملوك وأضرابهم، ويضربُ الأمثال بهم:

أينَ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ومَا
شـادُوه مـن أثَـرٍ شَـدُّوهُ بـالأثَـرِ
وأيـن مـا حَجَبُـوهُ في مـقـاصِـرهمْ
من أوجُـهٍ زُهُـرٍ كـالأنجُمِ الـزُّهُـرِ...

وهذه الأبيات تذكرنا بأبيات مشابهة في المعنى والمغزى وردت في قصيدته «لِكلّ شيءٍ إذا مـا تَمَّ نُقصـان» في رثاء ما سقط من بلدانِ الأندلس واستنهاض الهمم لاسترجاعها.

وحكمته دائماً مستخلصة من عبر الحياة، وأكثرها يصدر عنه في مجال الموت، والفناء، والخراب، وتنضح عن نفس مؤمنة متشرّبة بالقَناعة الدّينية. وهو بعيدٌ جداً عن أية معانٍ فلسفية غريبة.

● وله أبياتٌ قليلة أوردَها في معرِض حديثه عن غَرض الهجاء لا تجعلهُ من أهل هذا الباب، وإنّما هي المُناسبة العارضة أو المشاركة في الدعابة العابثة، ولم نعرف في ترجمته وأخباره ما يدل على خصومات له ظاهرة أو عداوات أكيدة، بل غلب على صورته لدينا الفضل والأناة ورجاحة العقل. ومن هجائه الذي أورده لنفسه في أثناء استعراضه لأشعارهم في الثقلاء قوله:

تـزلـزلتِ الأرضُ زلـزالَهـا فقلتُ لسكـانهـا: مـالهـا؟
فقـالـوا أتـانـا أبـو خـالـدٍ فـأخـرجت الأرض أثقـالهـا!

والهجاء من أقل أغراض الشاعر، ولا نظنه غرضاً اكترث به في حياته.

الجهاديات وشعر رثاء البلاد الاسلامية المغلوبة

١ ـ ظهر في الأندلس ضربٌ من الشعر ـ والنثر أيضاً ـ كان صدى مباشراً، وغير مباشر، لأحداث الحرب الدائرة بين المسلمين في الأندلس وخصومهم من الدول الإسبانية. وهو أدبٌ يهدف إلى تصوير نكبة الأندلسيّين بفقدان أجزاء من بلادهم، وتحريض القوم على الصمود ومواصلة القتال، وهو يدعو المسلمين من بَرّ العُدوة وما وراءه لإنقاذ الأندلس، والمشاركة في الجهاد المفروض. وقد تجتمع هذه العناصر في القصيدة الواحدة، أو يُكتفىٰ ببعضها.

وجذورُ هٰذا الضَرب من الشعر قديمة قدَم حركة الاستغلاب نفسها، ولكنه صار غرضاً بارزاً منذ عهد الفِرَق (الطوائف) التي انتشرت حُمَّى دويلاتها في الأندلس في القرن الخامس الهجري حيثُ اشتدت عليهم وطأة حركة الاستغلاب وسقطت مدينة طليطلة المنيعة. ووجَد المفكّرون والمثقّفون والمُخلصون من أهل الأندلس أنفسهم في موقف المسؤولية؛ فهَبُّوا من علماء وفقهاء وأدباء ومخلصين للقضيّة يشاركون في الحملة المضادة قولاً وعملاً. وكَثُر التحذير من أخطارِ التفرق، والاستنامةِ عن الجهاد، ومَغَبّة التخاذل والتقاعس. وبرز التحريض على الجهاد والقتال وحمل السلاح لاسترداد ما ضاع والدفاع عما بقي. واتخذ الأدب

المتعلق بهذا الغرض اتجاهين كبيرين (تتفرع منهما أمور كثيرة) هما:

١ ـ الدعوة إلى الجهاد، ومواصلة الكفاح.
٢ ـ بكاء ما ضاع من بلاد المسلمين.

وزاد هذا الغرض نشاطاً واشتعالاً عددٌ من الأسباب المتضافرة المتداخلة. فمنها تقلُّص ظلّ الرقعة الأندلسية، بعد ضعف الموحدين، شيئاً فشيئاً. وإحساسُ الأندلسيّ أن الدائرة المحيطة به تضيق وتختنق؛ وشكلُ حرب الاستغلاب وطابعها المشابه لما كان في المشرق آنذاك[1].

ومنها القسوةُ العارمة والعدوان الطاغي على الناس، على اختلاف أعمارهم وأنواعهم.

ومنها عدمُ احترام المواثيق ـ على الأغلب ـ وقلب معطيات الثقافة الإسلامية.

ومنها رُوح الاستشهاد التي كانت تضجّ في صدور الأندلسيين، وتنفجر في صدور العلماء والفقهاء وذوي المكانة من رجال الأندلس.

ومنها ارتباطُ الأندلسي بأرضه ارتباطاً قوياً، وشعوره بالواجب الجهادي المُلقى على عاتقه.

---

(١) راجع في هذا الكتاب (الحياة السياسية) من الفصل الأول.

٢ ـ ويقف الدارس على تيارات ثلاثة من شعر رثاء البلدان في الأندلس. أحدها: رثاء المدن الضائعة مما سقط في يد العدو، مما سبق الإلماع إليه في الفقرة السابقة. والتيار الثاني رثاءُ الدول الأندلسيّة الزائلة في أثناء الحكم العربي الإسلامي للأندلس؛ وهي الدُّوَيْلاتُ التي قامت بعد سقوط الدَّولة المروانية؛ وأشهر تلك الدول التي رثاها الشعراء دولة بني عَبّاد أصحاب إشبيلية، ودولة بني الأفطس أصحاب بطليوس. والتيار الثالث هو شعر رثاء المدن التي كانت عامرة فخربت بظروف سياسية أو اجتماعية كالشعر المقول في خراب قُرطبة بعد الفتنة البربرية، وخراب إلبِيْرَةَ بعد هَجْر أهلها لها ونبوغِ مدينةِ غَرْناطة.

ويتوجّهُ الذهن عند الحديث عن رثاء الأندلس إلى أصحاب التيار الأول من الشعراء، لأنهم هم الأكثر عدداً، والأشهر شعراً، وشعرهم هو المقصود بالدَّرجة الأولى[1].

٣ ـ كان الحديث عن الحروب بين الأندلسيين وخصومهم يقع في أثناء قصائد المديح كما نجد ذلك بوضوح في ديوان ابن دَرّاج القسطلي الذي سجل حروب الحاجب المنصور تسجيلاً رائعاً.

ويبدأ تيار رثاء المدن والحصون الضائعة عنيفاً غزيراً منذ

---

(١) راجع كتابنا «سقوط الأندلس: في التاريخ والأدب».

سقوط طُلَيْلَة سنة ٤٧٩ هـ. ومما بقي من أشعارهم في ذلك أبيات لابن العَسَّال الزّاهد، وقصيدة مطولة لشاعر مجهول أوردها المقري في نفح الطيب، منها:

لِثكلكِ كَيْفَ تبتَسِمُ الثُّغورُ سُروراً بعدما سُبيتْ ثغورُ
طليطلةٌ أباحَ الكفرُ منها حِماها إنَّ ذا نبأٌ كبيرُ
فليسَ مثالهَا إيوانُ كسرى ولا مِنْها الخورنَقُ والسَّدِيْرُ

ووقف الشُّعراء عند نكبةِ بلنسية وشرق الأندلس حين سقطت في يد السِّيْد كما صَنع ابنُ خَفاجة[1] في أواخر القرن الخامس. ثم استراح الأندلسيون إلى عهد القوة والتمكن في أيام المرابطين، وصدراً من دولة الموحدين؛ فلما تهافتت قوة هؤلاء ثم تهاوت دولتهم بدأ عهد استغلاب إسباني ـ برتغالي جديدٍ عارِم، فعادَ غرضُ الجهادِيّات ورثاءِ المُدن الأندلسية غزيراً نشيطاً؛ وقامَ الأدب بدوره وأدّى الأدباء مهمتهم. ويبرز في هذه المدة أبو البقاء الرُّندي، وابنُ سهل الإشبيلي، وابنُ الأبّار، وأبو المُطَرِّف بن عَمِيْرَة المَخْزُومي وغيرهم.

وفي ديوان ابن سهل الإشبيلي قصيدة أنشأها بطلب من أمير إشبيلية أبي عبد اللّه الموحدي لِحَثّ عرب المعقل على القدوم إلى الأندلس من شمال إفريقية والجهاد فيها، منها:

---

(١) راجع: ابن خفاجة، من سلسلة (الذخائر ١) للمؤلف.

وِرْداً فمضمُونٌ نجاحُ المُصْدِرِ
هِيَ عِزَّةُ الدُّنيا وفَوْزُ المَحْشَرِ
نادىٰ الجِهادُ بكمْ لِنَصْرٍ مُضمَرٍ
يبدُو لكمْ بين العِتاق الضُّمَّرِ
أنتم أحقُّ بنصْرِ دين نبيّكُمْ
وبكمْ تمهَّدَ في قَديمِ الأعْصُرِ[1]

واستنجد ابن مَردنيش بالأمير الحفصي صاحب تونس، وبعث كاتبه ووزيره ابن الأبار، فأنشد قصيدة في مدحه والاستنجاد به، واستنفاره للجهاد، منها:

أدرِكْ بخيلك خيلَ اللّه أندَلُسَا
إنّ السَّبيل إلى منَجاتها دَرَسا
وهَبْ لهَا من عَزيز النَّصر ما التَمستْ
فلم يزلْ منكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا[2]

وشهد ابن عيمرة المخزومي سقوط بَلَنْسِيةَ وجزيرة شُقْر، ومدن الشرق الأندلسي سقوطاً نهائياً، فذكر ذلك في شعره وكرَّر التأسف، والتحسر، واستنهاض الهم. فمن شعره في سقوط بلنسية:

---

(١) ديوان ابن سهل الإشبيلي (بيروت) ١٤٠.
(٢) راجع مختارات من الشعر الأندلسي (للمؤلف): ١٤٢.

مـا بـالُ دمـعـكَ لا يـنـي مِـدرارُهُ
أم مـا لِـقـلبـك لا يَـقِـرُّ قَـرارُه. . .
بـحـرٌ مـن الأحـزانِ عَـبَّ عُـبـابُـه
وارتـجَّ مـا بـيـنَ الـحَـشـا زخَّـارُه
فـي كـلِّ قـلبٍ مـنـهُ وجـدٌ عـنـدهُ
أسـفٌ طـويـلٌ لـيسَ تـخبُـو نـارهُ
أمّـا بَـلـنـسـيـةٌ فَـمـثْـوىٰ كـافِـرٍ
حـفَّـتْ بـهِ فـي عُـقْـرِهـا كُـفّـارهُ

والشعراء كثر، والشعر غزير.

٤ ـ كان الرُّنـدي واحداً من أدبـاء القرن السـابع، وشهـد تهاوي المجد الأندلسي منذ بِدايات هذا القرن. وتأثر كما تأثـر معـاصِرُوه من الأدبـاء والشعـراء. ونحن نعـرف لـه قصيـدتـه المطولة.

* لِكُلِّ شَيْءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصَانُ *

ومن المحتمـل أن يكون في شعـره الضائـع قصائـد أخرى في الغرض.

وقـد أسلفنا في الفصـل الأول أن صاحب كتـاب الذخيـرة السنيـة ذكر القصيـدة وقال إن الـرنـدي أنشـدهـا بعـد سلسلة التنازلات من قبل ابن الأحمر لألفونسو ملك قشتالة سنة ٦٦٥

ويظهر أن التنازلات الإسلامية ـ تحت الضغوط القاسية ـ كانت فادحة، واختلفت الروايات في تقديرها، ولكنها زادت عن أربعين مُسَوّرة من مدينة وحصن وما شابه ـ وهذا رقم مرتفع جداً.

ونقَل القصيدة ـ من بعد ـ المَقَّري في كتابيه أزهار الرياض، ونفح الطيب. وذكر أن زياداتٍ قد طرأت على القصيدة ـ بعد سقوط الأندلس نهائياً ـ ليست من أصلها. ويسلم للرندي ٤٣ ثلاثة وأربعون بيتاً رواها أيضاً في الذخيرة السنية[1].

وتمضي قصيدة الرندي في ثلاثة اتجاهات.

١ ـ الاعتبار بزوال الدول وموت الملوك والعظماء والتأسي بهم فلكلٍّ أجل محتوم.

٢ ـ تصوير سقوط المدن الأندلسية في يد العدو، وما حل بأهل الأندلس من مصائب ونكبات.

٣ ـ الدعوة إلى الجهاد، والاستنجاد بأهل بر العُدوة. وفي القصيدة دعوة ظاهرة للاستنجاد بدولة بني مرين[2]. وكان ابن

---

(١) انظر في تحقيق النص والدراسات حوله «مختارات من الشعر الأندلسي د. محمد رضوان الداية ـ دمشق» ص ١٥٠ ـ ١٦٠.

(٢) وكان الأمير المريني الحاكم في هذا الوقت: يعقوب بن عبد الحق، وهو من مشهوريهم وشجعانهم (انظر الذخيرة السنية: ٨٥).

الأحمر قد اقتنع ـ بعد الضغط القشتالي على الخصوص ـ بضرورة الالتجاء إلى الدولة المرينية الفتية، وأن يخفف من مخاوفه من استيلائهم على بلاده أو فرض شيء من سلطانهم. وزاد اقتناعه ـ مع الأندلسيين ـ بهذا الرأي بعد نجدة بني مرين سنة ٦٦٢ والتي أدت إلى هزيمة النصارى الإسبان. وهذا مستفاد من قوله في القصيدة:

يا أيُّها المَلِكُ البَيْضَاءُ رايتُه
أدركْ بسيفِكَ أهلِ الكُفْرِ لا كانُوا
يا راكبينَ عِتاقَ الخَيْلِ ضامِرَةً
كأنّها في مَجال السَّبْقِ عُقْبَانُ
وحاملينَ سُيوفَ الهِنْدِ مُرْهَفَةً
كأنّها في ظَلامِ النَّقْعِ نيرانُ
وراتعينَ وراءَ البحرِ في دَعَةٍ
لهُمْ بأوطانهمْ عِزٌّ وسُلطانُ
أعندكمْ نَبأٌ منْ أهلِ أندَلُسٍ؟!
... فقدْ سَرى بحديثِ القَوْمِ رُكبانُ

وتعد هذه الأبيات ـ وهي عنوان القصيدة ـ في جملة الحملة التي تولى القيام بها الفقهاء العاملون والأدباء والشعراء الذين تحملوا مسؤولية الإعلام. وكان هدفهم تحريض بني مرين وقبائل المغرب بعامة على الجهاد، وإنقاذ الباقي من

الأندلس والإثخان في أرض العدو. وتخرج الصرخة مدوية في وجه أصحاب الشأن الأعلى في غرناطة وفاس ـ وإن كانت لهجة الخطاب عامة ـ في قوله من القصيدة:

مـاذا التَّقـاطـعُ في الإسـلامِ بَيْنكمُ
وأنـتـمُ يـا عـبـادَ الـلّهِ إخْـوانُ
ألا نُـفـوسٌ أبيَّـات لـهـا هِـمَـمٌ
أمـا عـلى الخيـر أنصـارٌ وأعْـوانُ؟

وتتوزع الأفكار الجزئية في القصيدة على النحو التالي ١ ـ ٥: كلّ شيء إلى زوال، وحكم الدهر جار على مَنْ في هذه الدنيا، ٦ ـ ١٢ الاعتبار بالملوك والدول السالفة في التاريخ، ١٢ ـ ١٤ نقلة من الكلام العام عن نكبات الدهر، وتمهيد للدخول في موضوع (جزيرة) الأندلس، ١٥ ـ ١٧ بداية الحديث عن نكبة الأندلس، ١٨ ـ ٢٧ ذكر المدن الكبرى التي سقطت في يد العدو، وتحسُّر على ما أصابها، ٢٨ ـ ٣٥ الاستنجاد بملوك بني مَرِين وقبائل المغرب عامة والاستنصار بهم، ٣٦ ـ ٤٣ تصوير نكبة الأندلسيين ومأساتهم الدامية.

وتسيطر على القصيدة العاطفة الجامحة، ويَشيع فيها صدقُ التأثّر وحرارة الانفعال وروعة الحماسة الدّينية والوطنية.

ولغةُ الشّاعر في القصيدة بسيطة معبرة، والألفاظُ الأساسيةُ

في التعبير من العبارات الموحية الدالة ذات الأثر المباشر. ولا شك في أن الشاعر انشغل بتصوير الواقع القاسي وبالحماسةِ الجامحة، والعبارة المُجَلْجِلة عن التّنميق البديعي ـ وكان سمةً من سِماتِ العصر ـ وابتعدَ عن الإسراف في التصوير، أو القصد إليه.

والقصيدة تجمع بين الوصف السردي والروح الانفعالية؛ والعلاقة بين هذَين الطرفين علاقة وثيقة.

ويقف الدارس في أثناء القصيدة على بعض الحِكَم، وهي مما استنتجه الشاعر من الأحداث، أو استأثر به من قناعة بالحتمية:

يمزّقُ الدهرُ حَتْماً كلَّ سابِغَةٍ إذا نَبَتْ مَشْرَفيّاتٌ وخُرْصَانُ

ولكن الشاعر جعل من قناعته بهذه الحتمية وسيلة لتبرير الانهيار الأندلسي، ولعله ورّى بذلك عن الإشارة إلى أي أحد باعتباره السبب في هذا الانهيار.

وتعد قصيدة الرندي في أشهر قصائد الأندلسيين في الجهاديات ورثاء المدن الأندلسية الضائعة لما فيها من صدق الانفعال، وحرارة التّعبير، ولأنه استطاع بوصفه الدامي للحوادث الجارية على الأندلسيين أن يحرك العواطف ويشد الانتباه. وهو ـ بعدُ ـ استطاعَ أن يضع قضية الأندلس في إطارها، حين جعل مصيبة أي جزء من أجزاء الأمة مصيبة

عامة لا خاصة، ورأى أن الجهاد لاسترداد السَّليب من الوطن فرضَ عين لازماً لا يَسْقُط التّكليفُ به على أيّ حالٍ من الأحوال.

ومن خلال ذلك الوصف لِما أصاب الأندلس، ومن أثناء الحض على الجهاد والقتال تبدو العاطفة الحزينة، ويظهر لك الشاعر الباكي الذي كاد ييأس لولا الأمل البعيد الذي يتشبث به، ويرجوه:

تبكي الحنيفيّة البيضاءُ من أسَفٍ
كما بكىٰ لِفراقِ الإلْفِ هَيْمانُ
على ديارٍ من الإسلامِ خاليةٍ
قد أسلمتْ ولها بالكُفر عُمْرانُ...
لمثلِ هذا يذوبُ القلبُ من كَمدٍ
إنْ كانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ

دراسة في شعر الرندي

وقع شعر الرندي في نفوس معاصريه موقع القبول، وتلقوه تلقياً حسناً. وأثنى النقاد على شعره وشاعريته. فقال ابن عبد الملك المراكشي إنه كان خاتمة الأدباء بالأندلس، بارع التصرف في منظوم الكلام ومنثوره[1]. وقال لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة عنه: وشعره كثير، سهل المأخذ، عذب اللفظ؛ وهو غير مؤثر للجزالة[2]. وتحدث عنه بعض المعاصرين في معرض شعر الجهاديات ورثاء البلدان الإسلامية الضائعة، أو في تقويم كتابه النقدي (الوافي). فمنهم غارثيا غومز في كتابه الشعر الأندلسي[3]. وبلانثيا في تاريخ الفكر الأندلسي[4] والأستاذ عبد الله كنون في مقالة بمجلة معهد الدراسات العربية في مدريد[5]. والدكتور إحسان عباس في تاريخ النقد[6]. وتجد دراستين عنه في

---

(١) نقلاً عن ترجمة الرندي في (الإحاطة) القسم المخطوط.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الشعر الأندلسي ـ ترجمة د. حسين مؤنس ٦١ ـ ٦٢.

(٤) تاريخ الفكر الأندلسي ـ ترجمة د. حسين مؤنس ١٣١ ـ ١٣٢.

(٥) مجلة معهد الدراسات العربية ـ مدريد.

(٦) تاريخ النقد الأدبي ـ د. إحسان عباس.

تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، ومختارات من الشعر الأندلسي[1].

ويظهر من شعر الرندي الباقي أنه طرق الأغراض الشعرية التقليدية، وأكثرَ من المدح والغزل كما تقدم. أما الجهاديات ورثاء المدن فقد كان غرضاً بارزاً في العصر ذاته. وكانت للشاعر مُثلٌ يحب أن يحتذيها كمعارضته لبعض قصائد المتنبي. وكان يمثل لبعض رغبات الممدوحين في معارضة قصائد بأعيانها ـ أحياناً ـ كمعارضته لقصيدة ابن هانىء الفائية:

أليلَتَنا إذ أرسلتْ وارِداً وَحْفا
وبتْنا نَرى الجَوْزاءَ في أُذْنِها شَنْفا

بقصيدته التي مطلعها:

* أواصِلَتي يَوْماً وهاجِرَتي أَلْفاً[2] *

ويعدُّ الرُّندي استمراراً لحركة الأدب العربي التي لم تخمد جذوتُها في الأندلس. وهو يمثل طبقة من الشعراء استمروا على نفَسٍ عال في صياغة الشعر، وجلاء في الفكرة ونصاعة

---

(١) مختارات من الشعر الأندلسي (دراسات أندلسية ٣) ـ وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس (دراسات أندلسية ١) للدكتور محمد رضوان الداية.

(٢) من ترجمة الرندي في الإحاطة.

في العبارة، وغوص على المعنى الطريف والصورة الغريبة، وأناقة في الديباجة، وسلاسةٍ وقرب مأخذ.

وهو ألحّ على طلب الصورة في ملاحقة واستجلاب، وأعجب بعنصر التشبيه وأكثر منه إكثاراً يلفت النظر. وتجده يرصف في عدد من قصائده ضروباً من التشبيه رصفاً متلاحقاً؛ كقوله من قصيدة:

وليلِ صَبابةٍ كاللَّيلِ طُولاً تنكَّر لي وعَرفَهُ التَّمامُ
كأنّ سماءَهُ روضٌ تجَلّى بزهرِ الزّهرِ، والشَّرقُ الكِمامُ
كأنّ البدرَ تحت الغيمِ وجهٌ عليهِ من مَلاحَتِه لِثامُ
كأنّ الكوكَب الدُّرِّي كأسٌ وقد رَقَّ الزُّجَاجَةُ والمُدامُ
كأنّ سُطور أفلاكِ الدَّراري قِسِيٌّ والرُّجومُ لها سِهامُ
كأنّ مدارَ قُطبِ بناتِ نَعْشٍ نَدِيٌّ والنُّجومُ بها نِدامُ

ويظهر للدارس إعجاب الشاعر بمدرسة ابن خفاجة، ومجاراتها في كثير من قصائده ومقطوعاته. وهو التجأ إلى الطبيعة، وتعايش معها، ومزج بين الحديث عنها وعدد كبير من أغراضه الأخرى. ووصل في بعض أوصافه للطبيعة إلى الامتزاج بها والتجاوب معها.

وفي شعر الرندي سلاسة وموسيقية ظاهرة. فهو عُني بالعبارة، وانتقى الكلمة، ولاءم بين أجزاء الكلام. وبث في

قصائده موسيقا داخلية أكسبتها تلويناً صوتياً خاصاً. وهو اعتمد أيضاً ـ في الوصول إلى مطلبه هذا ـ على شيء؛ يقل حيناً ويكثر أحياناً، من التوازن والتقسيم والتصريع والترصيع، وانظر قوله من قصيدة:

أيا أضلعا، حرُّها، يلهبُ ويا أدمعاً، درها، ينهبُ
عجيبٌ لعَمْرُكَ شأن الهَوى ولكنّ صبري له أعجَبُ

وتجد الشاعر مقتدراً على الملاءمة بين البحور والأغراض التي يعالجها.

ويشعر الدارس أنَّ الصنعة اللفظية وضروب البديع قد سقطت إلى شعر الرندي، ولكنها لم تنتقص من أصالة شاعريته، ولا كانت حاجزاً أمام المعنى، ولا بهرجاً ثقيلاً على كاهل العمل الشعري. ولعل الشاعر استفاد من البديع في التلوين الصوتي، والتزيين اللفظي دون أن يصاب شعره بتصلب الإطار وتجمد المعنى. والرندي معجب بالطباق، والجناس أداتين أساسيتين من صنوف البديع، إضافة إلى ضروب منه أخرى مثل لزوم ما لا يلزم، والتوازن، والتقسيم، وحُسن الخروج والتخلص... كقوله من أبيات:

يا سالبَ القَلْبِ مِنِّي عندَما رَمقا
لم يُبْقِ حُبُّكَ لِي صَبْراً ولا رَمقا

لا تسـأل اليـومَ عَمّـا كـابـدتْ كَبِـدي
لـيتَ الـفـراقَ وليَـتْ الحُـبَّ مـا خُلِقـا
وكـنتُ فـي كَلفـي الـدَّاعـي إلـى تَـلِفـي
مثـلَ الفَـراشِ أحبَّ النّـارَ فـاحتَـرقـا

ومن قصيدة أخرى:

ولـيـلة نـبـهـتُ أجـفـانَـهـا والفجـرُ قد فَجَّـر نهـرَ النَّهـارْ
والليل كالمهزومِ يوم الـوغى والشُّهْبُ مثلُ الشُّهب عندَ الفِرارْ
كـأنمّا استَخْفىٰ السُّهـا خِيفـة وطُـولب النَّجْمُ بـثـارٍ فَثـارْ
لذاكَ ما شابَتْ نَواصِي الـدُّجا وطـارَح النَّسْـرُ أخـاهُ فَـطارْ

وقد لا يكون من المبالغة أن نعـد الرنـدي ممثلاً للنفـر من أهـل عصره الـذين أشربـوا بحب الصنعة اللفـظية والضـروب البـديعية، وشعـرهم ـ مع ذلـك كله ـ يحتفظ بـروائـه ورونقـه وأصالته.

ونحن حين نجـد الشـاعـر مُعرِضـاً عن المـوشَّحـات والأزجال ـ إذ لم يقع لنا من ذلك شيء، ولم يخبرنا في كتابه النقدي به ـ نلقاه مهتماً بأمور تـزيينية شكليـة شاع بعضهـا في عصـره، وتفنن هو بعـرض أمور لم يمثـل لها من شعـر غيره. وهـو ارتـاد القصيـدة (المـطولـة) والمقـطوعـة، واستخـدم الرباعيات أو (المربعة) كما سماها.

فمن مربعاته قوله:

كَمْ دُعينا لِغَيْرِكُمْ فأَبَيْنا
وضحكتمْ تَدلُّلاً فَبكَينا
يا قُساةَ القُلوبِ رِفْقاً عَلَيْنا
ما خُلِقْنا بينَ الأنامِ حَديدا

● ● ●

يا قُدودَ الغُصونِ عندَ التَّثَنِّي
ما لكمْ في عَذابنا بالتَّجَنِّي
قد قَنِعْنا حتى نَسِينا التَّمَنِّي
وخَضعنا حتى بَسطنا الخُدودَا

● ● ●

وعقد الرندي في (الوافي) باباً بعنوان «التفصيل» وتعريفه: «أن يقسم الشعر لقسمين أو أكثر في مواضع متوازية في أبياته، فإذا فصل منها قسم من كل بيت عما قبله، كان الباقي تام الوزن والمعنى. وينفك بذلك من القطعات ما تقتضيه صنعة ذلك. فمما ينفك منه أربع قطعات قولي:

يا قَضِيباً، مُنَعَّماً يا غَزالاً، مُهَفْهَفا
زارَ يوماً، وقد وفىٰ مستَرقَّاً، لمَّا جَفَا
صِلْ مُحِبّاً، ومُغْرَماً ومُعَنَّى، ومُدْنَفا

ذابَ وجْـداً، مُضَعّـفـا ووُجـوداً، فـأتْـلَفـا

وذلـك أن كل بيت منهـا ينقسم إلى أربعـة أجـزاء مـوازنـة لأجزاء عروضها. فإذا أضفت الجـزء الأول من كل بيت منهـا إلى مـا شئت من أجزائـه كان من ذلـك ثلاث قـطعـات. وإذا أسقـطت الجزء الآخـر من كل بيت منهـا كـان البـاقي قـطعـة رابعة»[1].

ومن التفنن الشكلي إنشاء قصائـد ومقطوعـات، تُقرأ بعـدة قوافٍ. وقد عقد في الوافي باباً تحت عنـوان (التبديـل) وهو يقتضي تبـديل التـرتيب، أو تبـديـل القـافيـة[2]. وقـد يكـون التبديل في الروي فحسب.

فمما ينشد بثلاث قواف قوله:

دَعْنِي وإنْ قِيْـلَ الجنونُ فنـونُ فـالصبُّ مثلي بالهَـوىٰ مَفْتُونُ
[مقلوبُ * مفؤودُ]

بأبي الذي أشكو هَواهُ وصـدّهُ والصدُّ صعْبٌ والهَوىٰ تَهـوينُ
[تعذيبُ * تنكيدُ]

كتبَ الجمالُ بلحـظِهِ في خَدِّه والخطُّ في حِسنِ الخدود يزينُ
[عجيبُ * يَزيدُ]

---

(١) الوافي (النسخة التيمورية): ١٢٦.

(٢) الوافي (نسخة الرباط: ٣٩).

ومن تبديل الروي ما يتردد بين اللام والراء قوله:

قـال الخليُّ: بـراك الحبُّ، قـلتُ: بَلى
وكم أجبتُ خليّاً عندمَا عَـذَلا * عَـذَرا
أرَيْتُـه في الـهَـوىٰ من قِـصَّتي عَجَبـاً
دَمْعاً إذا اشتعلتْ نارُ الحَشا انْهَملا * انْهَمَرا

ومما تفنن فيه الشاعر «التطريز» وهو إنشاد قصيدة، إذا جمعت أوائل الحروف من رأس كل بيت اجتمع من ذلك عبارة مقصودة أو اسم لممدوح، أو لمحبوب متغزَّل به الخ. كقصيدته:

ما عُدة المُلْكِ إلا السَّيْفُ والقَلَمُ ولا السِّيادَةُ إلّا الجودُ والكرم[1]

وهكذا نجد الشاعر مهتماً في كتابه النّقدي (الوافي) بالضُّروب البَدِيعية التي وصلت إلى عصره، ففصل فيها وضرب لها الأمثلة، وساقَ نماذج صنَعها على مِنوالها. وأظن أن شعره لم ينطبع بهذه الصبغة البديعية انطباعاً شديداً، ولكنّ الشاعر اكتفى بالأخذِ منها على قدر ما يتزين شعره دون أن يلتزمه مذهباً دائماً.

وهو بعدُ شاعرٌ يملك القدرة على جذب الأسْماعِ بشعرِه الرَّقيق، السلس المنتقى العبارة، ويستطيعُ أن يمد في

(١) الوافي (النسخة التيمورية): ٦٥.

القصيدة بِنَفَسٍ مُقتدر طويل. وهو من جهةٍ أخرى موصول اليد والصنعة بالتّراث العربيّ الأصيل. وهو في معانيه المستجدّة وصُورِهِ الجميلة نهبٌ بين محاولة التجديد الابتكارية، وإعادة صِياغة المعاني العربية السابقة في ثوب جديد. فمن معانيه اللطيفة التي تجمع بين النهجين:

وجدولٍ كُلّما مَرَّ النّسيمُ به كساهُ درعاً لها حَبابهُ حَلقُ
حتّى إذا انطبعتْ ليلاً به شهبٌ لم تمترِ العَيْن فيهِ أنه الأُفق

وقوله ـ ولا يغيب عنك نهج ابن المعتز ـ

أما ترى حُسن هلالِ الأفقِ كالتّاج أو كالقَوْسِ أو كالزَّورَقِ
أو خَطَّ نون بمدادٍ ذهب. مُتَرجَمٍ على زُجاجٍ أزْرَقِ

ومن جملة صلته بالتراث الأصيل استلهامه النفحات النجدية والحجازية، كما في قصيدته[1].

سلِّم على الحيِّ بذاتِ العَرارْ وحَيِّ من أجلِ الحبيب الدّيارْ
وخَلِّ مَنْ لامَ على حبهم فما على العشّاقِ في الحُبِّ عارْ

(١) القصيدة في نفح الطيب ٤: ٤٨٩.

الرندي ناقداً

اتسم عصر الرندي ـ كما سلف ـ بالتحرك والنشاط في مجالات العلوم والآداب والفنون. وعلى الرغم من الاضطراب وحال الفوضى التي وسمت جوانب كثيرة من مناحي الحياة فإن وجود تلك النشاطات كان واضحاً بيِّناً. وكما وجدنا للشعر حركة وحياة فقد كان للنقد الأدبي في القرن السابع للشعر حركة وحياة فقد كان للنقد الأدبي في القرن السابع وجود وكان للنقاد مكان. ويظهر أمامنا عدد من النقاد مثل الشُّقُندي (٦٢٩) وابن دِحية الكلبي (٦٣٣) وابن سعيد (٦٨٥) وحازم القرطاجني (٦٨٤) والرندي (٢٨٥).

الوافي في نظم القوافي:

وصل إلينا كتاب الرندي النقدي وهو «الوافي في نظم القوافي» ومنه نسخ في مواضع متفرقة. وقد صنعه الشاعر ليكون في جملة الكتب النقدية الأندلسية التي تهدف إلى إعطاء فكرة كافية عن هذا الفن، وتقدم للقارىء معلومات كافية عن صنعة الشعر ومحاسنه وعيوبه وأغراضه وما يستحب أن يكون فيه من ضروب البيان والبديع الخ.. وقد قال في المقدمة: «وقد أفردت في كتابي هذا جملة كافية في صنعة الشعر لمن أحب أن يأخذ بأزراره ويطلع على أسراره ويتفنن في بديعه، ويتبين سقطه من رفيعه..».

وجعل الرندي كتابه في أربعة أجزاء. وقسم الجزأين الأولين إلى أبواب بينما اقتصر في الجزأين الأخيرين على موضوعين رئيسيين. وفي الجزء الأول أربعة أبواب، أحدها: في فضل الشعر ومن تكلم به وأثاب عليه. والثاني: في الشعراء وطبقاتهم، والثالث: في عمل الشعر وآدابه، والرابع في أغراض الشعر وآدابه.

والجزء الثاني من الكتاب في محاسن الشعر وبديعه ومعانيه، وهو أربعون باباً.

والجزء الثالث، في عيوب الشعر وهي الإخلال، والسرقة والضرورة.

والجزء الرابع في حدّ الشعر والعروض والقافية.

عرض الكتاب:

انتظم الجزء الأول أربعة أبواب، في كل باب قضية من قضايا النقد الأدبي. وبعض هذه القضايا مما تكرر فيه الحديث في كتب النقد العربي المتقدمة أو مما لم يعد قضية نقدية مطروحة، لاستقرار الأصول النقدية التي تعالجها. فهو تحدث عن فضل الشعر ومن تكلم به وأثاب عليه. وناقش حليّة الشعر وجواز إنشاده. وانتقل إلى أخبار مطولة من مواقف

الرسول الكريم ﷺ والصحابة والخلفاء وهلم جراً. وفي الباب الثاني تناول قضية قسمة الشعراء إلى طبقات أو تصنيفهم إلى صنوف. فالشعراء ثلاثة جاهِليُّون ومُخَضرمون وإسلاميُّون. وثلاثة: صُدور (مثل جَرير والفَرزدق والأخطل). ومُحْدَثُون (كالعَتّابي وأشْجع السُّلَمي والسَّيِّد الحِمْيريّ) ومُوَلَّدُون (مثل مُسلم بن الوليد، والحسَن بن هاني وأبان اللاّحقي). وفي الباب الثالث تحدث عن عمل الشعر وآدابه، وبيّن طريقة تأليف الشعر، والحال التي ينبغي أن يتهيأ الشاعر بها لكي يستطيع الإبداع. ونقل آراء سابقة وردت عند ابن قتيبة وقدامة، وابن رشيق. وفي الباب الرابع تحدث عن أغراض الشعر وآدابه، وقال إن الأغراض التي تدور على الألسنة ويتداولها الناس ثمانية أنواع: النسيب، والمدح، والتهنئة، والرثاء، والاعتذار، والعتاب، والذم، والوصف.

وخص الرُّندي الجزء الثاني من كتاب (الوافي) بموضوع: محاسن الشعر وبديعه ومعانيه. وتناول فيه فنون البلاغة ـ والبديع منها على الخصوص ـ وأورد في هذا القصد أربعين باباً مما اقتنع به، ورأى أن أهل الفن اجتمعوا على تأييده. قال «اعلم أن أرباب صنعة الشعر ونقاد الكلام تواضعوا في صناعة الشعر على أسماء وسموا بها بدائعه، ورسموا روائعه فجمعوا فوائده ونظموا بذلك فرائده. وقد أوردت من ذلك

أربعين بـابـاً تـروق النـاظـر، ويفـوق بهـا المنـاظـر. . .»[1] والأبـواب الأربعون تتنـاول: الابتداء والانتهـاء، والاستطراد، والمـطابقة، والمقـابلة، والمناسبـة، والتشبيـه، والاستعـارة، والتخييل، والتفريـع، والتوجيـه، والتمثيل، والتمثـل (بمعنى المثـل السـائـر)، والتجنيس، والمضـارعـة (وهـو نـوع من التجنيس) والتـرديـد، والتصـديـر، والإتبـاع، والتبـديـل، والتضمين، والإطـراد، والتفسيـر، والمبـالغـة، والتتميم، والتسهيم، والتحـرز، والالتفـات، والتحـريف، والاستثناء، والقلب، والتصحيف (وهـو نـوع من التجنيس) والتـرصيـع، والتسجيـع، والتسميط، ولـزوم مـا لا يلزم، والتفصيـل، والتختيم (ويسمى التقـاطـع والاشتـراك)، والإحـالـة، ونفي الشيء بإيجابه، واللُّغز.

وفي الجزء الثالث تنـاول عيوب الشعـر، وهي كما صنفهـا ثـلاثة: الإخـلالُ، والسرقـة، والضرورة. وينـدرج تحت كـل واحـد من هذه الصنـوف أقسـام، وتتفـرع هـذه بـدورهـا إلى فـروع[2]. أمـا الإخـلال فيتنـاول عيـوب اللفظ أو المعنى أو ائتلافهما، وعيـوب الوزن والقـافية. وأمـا السرقـة «فهي على

---

(١) الـوافي (النسخـة التيمـوريـة ٧٤) وانـظر دراسـة مفصلة عن هـذه الفنـون ومصـادرها عنـد الرنـدي في: تاريـخ النقد الأدبي في الأنـدلس ـ د. محمـد رضوان الداية ـ دار الأنوار. «دراسات أندلسية ١».

(٢) الوافي (النسخة التيمورية) ١٤٠. (وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس ٤٦٠).

أنواع، وبابها متسع، والتخلص منها بالجملة يكاد يمتنع، ويدل على استحسان الآخذ لما أخذه وعجزه عن الإتيان بما يغنيه عنه أو على قلة المبالاة بها»[1]. وهو جعل للسرقة أنواعاً ونقل لها ألقاباً. وقسم الحديث في هذا الجزء إلى ضُروب السرقة، ومراتب الأخذ، وما يشبه السرقة. وأورد ألقاباً وتفصيلات كثيرة، معظم ما فيها سبق أن تحدث عنه النقاد المتقدمون، وبقي له فضل الاختيار، والترتيب، والتسمية (أحياناً)، والمعالجة وفق وجهة نظر خاصة.

والضرورات الشعرية عند الرندي على الجملة من العيوب، ولكن بعضها أخف من بعض[2]. وهي عنده على أربعة أضرب: التبديل، والتقديم والتأخير، والزيادة، والنقصان ومعظم ما في الباب نتيجة، وخلاصة، واختيار، لمؤلفات كثيرة تناولت هذا الموضوع في كتب النقد العربي.

أما الجزء الرابع فخاصّ بحدّ الشعر والعروض والقافية، وهو يلحق بالبحوث العروضية. وهو عدّ البحور العربية خمسة عشر بحراً، واستخرج البحور المهملة ـ وأضاف إليها بحر المُتدارك ـ ومثل لكل ذلك تمثيلاً وافياً.

والطريف أن الرندي لما استخرج البحور المهملة لقّبها

---

(١) الوافي: ١٤٨.

(٢) الوافي: ١٥٧.

ألقاباً، وضرب أمثلة لها. كما نظم ضوابط خاصة بالبحور الشعرية المستعملة[1].

وعلى كل حال فإن كتاب الرُّندي يدل على استمرار وجود الحركة النقدية في الأندلس (الباقية) واهتمام جمهرة الدارسين بهذا النوع من التأليف. وقد كان الرندي في أثناء عرض موضوعات كتابه دائم الاحتجاج والاستشهاد بأشعار معاصريه ـ ومن تقدمهم ـ من الأندلسيين بالإضافة إلى الشواهد المتكررة في كتب النقد والبلاغة. وعمله هذا يربط ما بين الدراسة النقدية النظرية، والدراسة النقدية التطبيقية (ولو كان هذا على شكل بسيط).

وكان التقليد أغلب على ما في الكتاب من مادة وإن حاول المؤلف أن يسبغ عليه من نفسه، ويدخله في إطار منهج شخصي خاص. ولكن المادة النقدية الأولية في معظمها كانت من الكتب المتقدمة عليه. وكانت يد الرندي ممدودة ـ على الخصوص ـ إلى كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني، فقد كان الأندلسيون مهتمين به حتى إن محمد بن عبد الملك الشنتريني ألّف كتاباً في النّقد وأفاد منه وردّ عليه[2].

---

(١) انظر في هذا: المعيار في أوزان الأشعار (تحقيق د. محمد رضوان الداية) فقد نقلت فصول من كتاب الرندي في آخر الكتاب.

(٢) هو صاحب (المعيار في أوزان الأشعار) الذي سبقت إليه في الحاشية السابقة وكتابه هو (جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب) وسيصدر في سلسلة دراسات أندلسية بتحقيقنا.

ويظهر أن للكتاب غرضاً تعليمياً واضحاً، فهو أقرب إلى تلخيص المعلومات النقدية وتقريبها للقراء.

الرُّندي كاتباً:

نثر الرندي في كتابه «الوافي» بعض رسائله، وبقي لنا من مؤلفاته جزء من كتاب «روضة الأنس ونزهة النفس» هو الجزء الأول. ويمكن أن نلمّ إلمامة عامة بأسلوبه - على ضوء المتبقي من كتابه -. ولا نعرف له، في ضوء أخباره، مهمة كتابية - سلطانية - عند بني الأحمر في غرناطة أو إحدى مدن الأندلس الأخرى، أو عند سواهم ممن كان قبلهم. وقد سبق في الفصل الأول أننا لم نعرف له علاقة مباشرة مع حكام الأندلس قبل اعتلاء محمد بن نصر (ابن الأحمر) دولة غرناطة.

ونجد الرُّندي يَسلك في أسلوبه النّثري منهجين اثنين: أحدهما الأسلوب المنمَّق المثقل بضروب البديع، الآخذ بالسجع والتفصيل والتغصين. وهذا الأسلوب يظهر في مقدمة كتابه «الوافي» وكتابه الآخر «روضة الأنس». كما نجده في مقدمات فصول كتابه الأخير. والأسلوب الثاني سهل مُرْسَل تخفف الرندي فيه من القيود والمحسّنات، وتجده في

---

(١) روضة الأنس ونزهة النفس: ص ١.

معالجته لقضاياه النقدية كلهافي الوافي، وبسطه لمسائله المختلفة في روضة الأنس.

وهو اتبع الأسلوب المتكلف في رسالته التي بعث بها من رُندة إلى الأمير محمد الثاني النصري معزّياً بوفاة والده، مهنئاً بولايته السلطة[1].

وهكذا فإن الرندي جمع بين الطريقتين وأجاد في الأسلوبين. وتجده في طريقته المرسلة البسيطة ناصع العبارة متمكناً من اللغة محكماً لتأليف الكلام.

فمن نثره على النهج الأول قوله في خطبة كتاب روضة الأنس[2] «الحمد للّه قبل وجود الأوائل، الآخر بعد ثبوت الدلائل. الظاهر بما وجب من افتقار الفِعل إلى الفاعل. الباطن بما حجب من حقيقة الحق الذي ما خلاه باطل.

نحمده، سبحانه، كما يجب لمجده، وإن من شيء إلا يسبح بحمده. ونشهد أنْ لا إلّه إلا اللّه وحده لا شريك له، شهادة من شاهد فيض جُوده وتحقق وجوبَ وجوده. فوصَفه بالكمال، ونزّهه عن ضده. ونشهد أن محمداً صفوة أَصْفِيائه وخاتم أنبيائه وخيرة أهل أرضه وسمائه، نبي الرحمة وتمام النعمة. الذي بجاهه يتوسل يوم لا يقوم مقامه ملك مقرَّب ولا

(١) انظرها في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٢) روضة الأنس: ١ ـ ٢.

نبي مرسل. صلى اللّه عليه صلاة تُرضيه، وتَفِي بحقّه وتَقتضيه، وعلى آله وسلم وشرف وكرّم. وبعد فإنه لما كان الأدب روض القلب الذي فيه يرتع، ونُزهة النفس التي بها يتمتع، وريّ القلب عندما يظمأ وجلاء الفكر كلما يصدأ رأيت أن أجمع في كتابي هذا من عيون أخباره وفنون آثاره ومنثور فوائده ومأثور فرائده جملة يرتاح لها العاقل ويتباهى بها الناقل، ذلك لأني لم آخذ من أصداف الكتب إلا درُرَها، ولا أوردت من أصناف الأدب إلا غررها، والذهب يخلص باللهب وفيْ الخمر معنى ليس في العنب وسميته روضة الأنس ونزهة النفس..».

وعلى الرغم من أن النثر الفني في المشرق والمغرب على حد سواء قد بلغ ذروته، وتدرّج في مراتب الصنعة والتعقيد فإن الرندي لا يأخذ بالأسلوب الذي انتهى إلى (الأُسْلُوب المُرَصَّع)[1] بل اختار نهجاً معتدلاً. ولعل هذا متعلق بتطلعه إلى الأسلوب المرسل وانطلاق قيوده كما في النص التالي من روضة الأنس أيضاً: من الباب الثاني في الأرض وما يتعلق بها من ذِكر الأقاليم والبلاد والبحار

(١) انظر في الأساليب النثرية في الأندلس كتاب «إحكام صنعة الكلام» لمحمد بن عبد الغفور الكلاعي تحقيق د. محمد رضوان الداية ـ عالم الكتب ـ ـ الطبعة الثانية بيروت. وتاريخ النقد الأدبي في الأندلس: ٤٠١ تأليف محمد رضوان الداية ـ الطبعة الثانية مؤسسة الرسالة ـ دمشق وعصر الطوائف والمرابطين للدكتور إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت.

والأنهار. وفيه[1] «ذكر أهل البحث والنظر أن الأرض مطبقة على مركز العالم ثابتة في جوف الهواء، وهو محيط بها وبما عليها من البحار لا يمسكها ماسك إلا الحكمة الربانية والقدرة الإلهية كما قال الله عز وجل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماوَاتِ والأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾. وذكر الناس في علة نبات الأرض في جوف الهواء الذي تأباه أفهام العوام وجوهاً أحقها أنه لما كان مركز العالم هو حقيقة السفل ونهايته الذي يطلبه كل جسم ثقيل بطبعه انضمت عليه أجزاء الأرض من كل جهة فبقيت لذلك ثابتة في جوف الهواء. ولا يمكن للثقيل إذا تحرك السفل أن يتجاوز المركز لأن ذلك يضاد حركته الطبيعية.

وقيل وجه آخر في ذلك وهو أن الله تعالى جعل في الفلك قوة جاذبة للأرض كذب المغنطيس للحديد، فلما استوى الجذب من كل جهة بقيت في الهواء ثابتة»[2].

كتابه روضة الأنس ونزهة النفس:

يعد كتاب الرندي الذي سماه روضة الأنس ونزهة النفس

---

(١) روضة الأنس ونزهة النفس ص ١٨. وننقل النص دون تعليق على قيمة المعلومات الجغرافية فيه.

(٢) لم يطلع كراتشكوفسكي على كتاب الرندي هذا. ولكنك تجد دراسة عن الأدب الجغرافي لعصر الرندي وأعلامه في كتابه تاريخ الأدب الجغرافي العربي - ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم - القاهرة - جزآن.

في كتب الثقافة العامة التي شاع التأليف فيها؛ والتي كان مثالها البارز كتاب ابن قتيبة: عيون الأخبار. ويقول الرندي في مقدمة كتابه إنه ألفه كتاباً في الأدب جامعاً لعيون الفنون والآداب والأخبار والفرائد والفوائد، وأنه انتقى «من الكتب دررها ومن أصناف الأدب غررها». ويكون (الأدب) الذي قصد إليه هو الأدب بمعناه الواسع الشامل الذي عرفه ابن خلدون بأنه الأخذ من كل علم بطرف.

وجعل كتابه في عشرين باباً تتوزعها الموضوعات التالية: الباب الأول في العالم ومعالمه. والثاني: في الأرض والبلاد. والثالث: في بدء البشر. والرابع: في النبي ﷺ. والخامس في الخلفاء وأهل البيت. والسادس: في الدولة الأموية. والسابع: في الدولة العباسية. والثامن: في أهل الردة والخوارج. والتاسع: في جمل من الفتوح. والعاشر: في لمع من...[1]. والحادي عشر: في الحرب. والثاني عشر: في الملك والرياسة. والثالث عشر: في العلم. والرابع عشر: في الشعر. والخامس عشر: في المال. والسادس عشر في النساء والبنين. والسابع عشر: في الناس والزمن. والتاسع عشر: في الحكايات. والباب الموفي عشرين: في الحكم والمواعظ».

---

(١) غير واضحة في الأصل (النسخة المصورة).

وهو في هذه الفصول ـ في الأغلب الأعم ـ ناقل ومصنف ومرتب، بيد أن له فضل العبارة الأنيقة والكلمة الرشيقة قال: «وقد ضممت في كل جزءٍ منها الشيء إلى ما يماثله، وألحقت به ما يشاكله. ولجأت إلى فكري في كثير من الفصول القصار واللفظ المختار. إذ كان القصد في ذلك الإجادة لا الرواية والإفادة لا الحكاية»[1].

والموجود من الكتاب هو الجزء الأول[2]، وينقطع في أثناء الباب التاسع «في جُمَل من الفُتوح». وقد رفع الرُّندي كتابه إلى الأمير النصري محمد بن محمد وطرزه باسمه، احتفاء وتقديراً «فإنه ـ أيده الله ـ زان الملك بالذات الفاضلة والصفات الكاملة والنصبة الإمارية والنسبة الأنصارية، فمن همم تساوي المجد وتجاوز الجوزاء وشِيَمٍ شِيْمَ بها الدهر، وينتسب لها الزهر، إلى جود تروى به الآمال ويسترق بمثله الأحرار». ولا يخفى المغزى من الوصف بالكرم والجود في خطبة الكتاب.

ومصادر الكتاب مختلفة متعددة، عرفنا منها عرضاً، وفي

---

(١) روضة الأنس الورقة: ٢.

(٢) اطلعت على النسخة المصورة عند صديقي الأستاذ محمد مفتاح، عن الأصل الموجود في مكتبة صديقنا الأستاذ الفقيه العلامة محمد المنوني الذي تكرم مشكوراً بالموافقة على الإفادة من الكتاب.

أثناء القسم الباقي من الكتاب: كتاب ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل، وكتاب المسعودي مروج الذهب ومغازي الواقدي. وهو نصٌّ على النقل من ابن إسحاق (في السيرة) وعن (صاحب التيجان) وصاحب المجسطي، وصاحب الزهر (زهر الآداب). ولا شك في أن مصادره كثيرة وإن لم تتضح لنا جميعاً.

وكتاب الرندي من كتب الثقافة العامة التي يستفاد منها في الأغراض التعليمية وما يشبه ذلك. وليست في الكتاب جدة أو إبداع يلفت النظر. ولكن الأديب الشاعر كان يخرج عن موضوعه ليقدم قطعاً وقصائد من شعره تلون الكتاب وتقدم لنا ذخراً طيباً لشاعر غاب عنا ديوانه.

● ● ●

الفصل الرابع

مختارات من آثاره

[١]

قال في مديح الأمير محمد بن نصر أمير غرناطة:

سَلَّم على الحَيِّ بِذَاتِ العَرارْ
وحَيِّ من أجلِ الحَبيبِ الدّيارْ[١]
وخَلِّ من لامَ على حُبِّهِمْ
فمَا عَلى العُشّاقِ في الذُّلِّ عَارْ
3 ولا تُقَصِّرْ في اغتِنَامِ المُنىٰ
فمَا لَيالِي الأُنسِ إلا قِصَارْ
وإنما العَيْشُ لمن رامَهُ
نَفْسٌ تُدارىٰ وكؤوسٌ تُدارْ
وروحُه الرَّاحُ ورَيحانُهُ
في طيبِهِ بالوَصْلِ أو بالعُقارْ[٢]
6 لا صَبْرَ للشَّيء على ضِدِّهِ
والخَمْرُ والهَمُّ كماءٍ ونَارْ
مُدَامَة مُذْنِيَةٌ للمُنى
في رِقَّةِ الدَّمع ولونِ النُّضارْ[٣]

---

(١) العرار: نبات طيب الرائحة (بهار البر) وذات العرار علم على مكان.
(٢) العقار: الخمرة.
(٣) النضار: الجوهر الخالص من التبر.

مـمّـا أبـو رِيْـق أبـاريـقِـهـا
تنـافستْ فيهـا النـفـوسُ الكبـارْ
9 مُـعلَّتـي والـبـرء مـن علـتـي
مـا أطيبَ الخمـرة لـولا الخُمـارْ[1]
مـا أحسنَ النـارَ الّتي شكـلُهـا
كـالمـاءِ لـو كفَّ شِـرار الشَّـرارْ
وبـي وإن عُـذِّبـتُ فـي حُـبِّـهِ
بِـبُـعْـدِهِ على اقـتِـرَابِ الـمـزَارْ
12 ظَـبْـيٌ غَـريـرٌ نـامَ عـن لَـوْعتـي
ولا أذوقُ الـنَّـوْمَ إلا غِـرارْ[2]
ذو وَجْـنَـةٍ كـأنَّـهـا رَوْضَـةٌ
قـد بَـهـر الـوَرْدُ بـهـا والبَـهـارْ
رجَـعـتُ لـلصَّـبـوة فـي حُـبِّـهِ
وطـاعـةِ اللّهـوِ وخَـلْعِ الـعِـذارْ
15 يـا قَـوم قُـولـوا ـ بـذِمـامِ الهـوى ـ
أهـكـذا يَفْـعَـلُ حُـبُّ الـصِّـغـارْ؟
ولَـيْـلَةٍ نَـبَّـهْـتُ أجْـفـانَـهـا
والفَجْـرُ قـد فَـجَّـر نهـرُ الـنَّـهـارْ

---

(١) الخمار: صداع الخمرة وأذاها وما خالط من سكرها.

(٢) الغرار من النوم: القليل.

واللـيـلُ كـالمَهـزومِ يَـوْمَ الـوَغىٰ
والشُّهب مثـلُ الشُّهب عند الفِـرارْ
كـأنَّمـا استَخْفىٰ السُّهـا خِيفـةً
وطُـولـبَ النَّـجـمُ بـثـارٍ فـثـارْ
لِـذاكَ مـا شـابَتْ نَـواصِي الـدُّجىٰ
وطـارَحَ الـنَّـسْـرُ أخَـاهُ فـطارْ
وفـي الـثُّـرَيّـا قَـمـرٌ سـافِـرٌ
عـن غُـرّةٍ غيَّـر منـهـا الـسِّـفـارْ
كـأنّ عُـنـقـوداً تـثـنّـى بـهِ
إذ صـارَ كالعُـرجون عند السِّرار[1]
كـأنّـهـا تـسـبـكُ ديـنـارَهُ
وكـفُّـهـا يـفـتِـلُ مـنـهُ السِّـوارْ
كـأنـمـا الـظَّلمـاءُ مَـظلومـةٌ
تـحكَّـمَ الـفَـجْـرُ عـلَيـهـا فَـجـارْ
كـأنّـمـا الـصُّبـحُ لـمـشـتـاقِـهِ
عِـزُّ غِـنىً مـن بـعـدِ ذُلِّ افـتِـقـارْ
كـأنـمـا الشَّـمسُ وقـد أشـرقَـتْ
وجـهُ أبـي عـبـدِ الإلـهِ اسـتَـنـارْ

---

(١) استسر القمر أي خفي ليلة السرار؛ فربما كان ليلة وربما كان ليلتين.

27 مـحـمَّـدٌ مـحـمَّـدٌ كـاسـمِـه
شخصٌ لـهُ في كـل مـعنى يُشـارْ
أمـا المَعـالي فهـو قـطبٌ لـهـا
والقُـطبُ لا شَـكَّ عليـهِ المـدَارْ
مُـؤثَّـل المَـجْـدِ صَـريـحُ العُـلا
مُهـذَّبُ الـطَّبْـعِ كـريمُ النِّجـارْ
تُـزهـىٰ بـه لَـخْـمٌ وسـادَاتُـهـا
وتـنتَـمي قَـيْسٌ لـهُ في الـفَـخـارْ
30 يُـفـيضُ مـن جُـود يـديـهِ عـلى
عـافِيـه مـا مِنْـهُ تحـارُ البِـحـارْ
اليُمـنُ من يُـمـنـاه حُـكـمٌ جَـرى
واليُسْـرُ مـن شِيـمـةِ تلكَ اليسـارْ
أخ صـفـا مـنـهُ لـنـا واحِـدٌ
فـالـدَّهـرُ مِمَّـا قـد جَنىٰ في اعتـذارْ
33 فـإنْ شَـكـرْنَـا فَـضْـلَهُ مـرَّةً
فـقـد سَـكِـرْنـا مـن نَـداهُ مِـرارْ
ونـحـنُ مـنـه في جـوار الـعُـلا
تـدورُ لـلسَّـعـدِ بـنـا مِـنْـهُ دارْ
الـحـافظُ الـلّهُ وأسـمـاؤه
لـذلـك الـجـارِ وذاكَ الـجِـوارْ

[٢]

قال في الوافي: «وانفصلت عن الحضرة النصرية ـ أسماها اللّه ـ في بعض زوراتي، وقد تُكلم بإعذار الأمير ـ أعزه اللّه ـ فقلت في عروض هذه القصيدة»(*):

ألِـثـامٌ شـفَّ عـن وَرْدٍ نـدِ
أم غَـمـامٌ ضَـحِـكتْ عـن بَـردِ
أم عـلى الأزرارِ مِـن حُـلَّتـهـا
بـدرُ تـمٍّ فـي قَـضـيـبٍ أمْـلدِ
3 بـأبـي لِـيـنٌ لـه لـو أنَّـهُ
نُـقـلت عِـطفـتُـه لـلخَـلَدِ
لا وألـحـاظٍ لـهَـا سـاحِـرَةٍ
نفثَتْ في الـقَلْبِ لا في الـعُـقَـدِ
لا طـلبتُ الـثـأر مِـنهـا ظـالـماً
وأنـا الـقـاتـل نفسِـي بِيَـدي!
6 نـظرْت عَـيْـني لِحَـيْـنـي نـظرةً
أخـذتْ رُوحي وخلّت جَسَـدي(١)
هـاتِـهـا بـاللّهِ فـي مـرضـاتـهـا
قَـهـوةً فـيـهـا شـفـاءُ الـكـمـدِ

(*) الوافي (النسخة التيمورية): ٥٢.

(١) الحين: الهلاك.

عُصِرت باللُّطف في عصرِ الصَّبا
فرمت بالمسكِ لا بالزَّبدِ
ما دَرى مُديرُها في كأسِها
- وهيَ مثلُ البارقِ المتقّدِ
دُرةٌ ضمَّت على ياقوتةٍ
أم لجينٌ فيه ثوبٌ عسجدي
سقِّني غَيْرَ مُليمٍ إنني
حنفيُّ الرأيِ والمعتقدِ!
لا أرى بالسُّكر إلا مِن هوى
أو هِبات الملكِ المؤيَّدِ
مَلكُ العَليا ولو أنصفتُهُ
فَفتحت اللام لم أُفنَّدِ[1]

(١) يريد ملك (بفتح اللام).

[٣]

قال صاحب الكتاب (كتاب الوافي): ولما بويع بالحضرة النصرية بولاية العهد الأمير المعظم أمير المسلمين - أيده اللّه - واقترن بذلك مولد ابنه الأمير المعظم - أسعده اللّه - قلت في ذلك في عروض قصيدة أبي الطيب(*).

مَنِ الظباءُ تَروع الأسد بالمُقلِ
وما رَمتْها بغيرِ الغُنْجِ والكحَلِ
من كلّ رَوْدٍ تَرُدُّ السُّمر مشرعةً
وما اتَّقها بغيرِ الحَلْيِ والحلُلِ (١)
3 وربّما أقْدَمتْ والخَيْلُ مُحْجِمةً
فتطعَنُ الطَّعْنَةَ النجلاءَ بالنَّجلِ (٢)
تلك الشُّموسُ التي قد أطلعْت قُزَحاً
أذيالهنَّ ولا غَيْمٌ سِوَى الكِلَلِ (٣)
يُريك شَرْحَ الصِّبا منهن رأدُ ضُحىً
وهنّ من مُذهباتِ العَصْب في أُصُلِ (٤)

(*) قصيدة الرندي معارضة لقصيدة المتنبي التي مطلعها:
أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل
دعا فلباه قبل الخيل والإبل
(١) في القاموس: الرئدة والرؤودة الشابة الحسنة.
(٢) النَّجلُ (بالتحريك) سعة العين.
(٣) الكلل ج كله: الستر الرقيق.
(٤) رأد الضحى: ارتفاعه. وأصل جمع اصيل.

6 كم للجَمـــالِ بهـــا مـن آيــة تُليـت
على المُحِبّ فجلّت شبهــةَ العَـذلِ
وقُضب بــان على كثبٍ لهــا زهــرٌ
يُسقى ـ ولا ظمأً ـ بالأدمُع الهمُـلِ
خفَّت لهـا وُشحٌ جــالتْ على هيفٍ
فــوقّــرتهــا من الأرْدافِ بــالثّقَــلِ
9 ونَــظْرَةٍ يُشْتَفىٰ منـهـا بثـانيــةٍ
كمـا تداويتَ بـالصّهبـاءِ من ثَمَـلِ!
بعثُ الحيــاةَ بهـا من لحظِ جــارِيَـةٍ
إذا رنَتْ فحِــذَاراً مِن بني ثُعَــلِ[١]
ولَّى عــزائي مِن أجفــانهــا فَــرَقــاً
كـأنّمـا هُــو عمـروٌ وهي سيفُ علي!
12 ولـيلةٍ بــالّلوى مــا كــانَ أطْيَـبهــا
زالتْ معــاهِـدُهــا والعهـدُ لم يَــزلِ
بتنــا نُســاقي المنى والأنسُ ثــالثنــا
والـرّاحُ من شَنبٍ والنُّقْلُ من قُبَـلِ[٢]

(١) بنو ثعل حي من أحياء العرب، وهم الذي عناهم امرؤ القيس بقوله:
رب رام مــن بــني ثــعــل مخــرج كـفـيــه مـن ستــره
(٢) الشنب: عذوبة في الأسنان.

حتى بَدتْ غُرَّةٌ للصُّبْحِ مُشْرِقَةً
كمثل وجهِ ولي العهد يوم وَلِي
يا يوم سَعْدٍ كأنّ العيدَ عادَ به
والنّاسُ في مَرحٍ والدَّهْرُ في جَذَلِ
شَهِدْتُه، فرأَيْنا الأَرْضَ قد بَهرتْ
والشّمس قد سَترتْ وَجْهاً من الخَجلِ
وللطُّبول به خَفْقٌ يُساجِلُهُ
خفقُ الهنودِ على الخَطِّيَّةِ الذُّبُلِ
وكلّ أشوسَ ساجي الطّرف من أدبٍ
يهوي للثم يدٍ أشْهى من الأملِ
ويَجْتَلي غُرّة بالبِشْرِ مُشْرِقَةً
كما تجلّتْ إياهُ الشّمسِ في الحَمَل[1]
لِلّهِ لِلّهِ من عِيدين في نَسَقٍ
لِهذه الدولة الغَرّاءِ في الدُّولِ
أهلاً بذا الولدِ الميمون مولِدُهُ
والصّارم المُنْتضى من أكرمِ الخللِ
أهلاً بذَا الملك النَّصْرِيّ مجتِدُهُ
والفارسِ البطلِ بن الفارسِ البطلِ

---

(١) إياة الشمس: نورها وحسنها.

وبيعـةٍ عُقِـدَتْ والسّعـدُ يُسعِـدُهـا
فما تَرى في خـلالِ الأمن من خَللِ
24 عـلى تقـلّدهـا أَوْلى الأنـامِ بـهـا
ووارث المجـدِ من آبـائـهِ الأُوَلِ
الفـاعـل الفعـلَ لا يُعْـزىٰ لـه خَـطأً
والقـائل القـولَ لا يُؤتي من الخَطلِ
مُحيِي الغَـرِيبين من دِيْـنٍ ومن أدَبٍ
وقـاتـلِ القـاتِلَيْنِ: الجُبْنِ والبَخَـلِ
27 وبـاعث الجَيْش بعـدَ النّـذر مُتّئِـداً
فيثني وهـو في ثـانٍ من النَّفَـلِ
مـا نـامَ عن بـأسـهِ قَـوْمٌ على غَـرَرٍ
إلا وأيْقـظَهُمْ طيفٌ من الـوَجَـلِ
ولا انْتَضىٰ عَـزْمَـهُ سَيفـاً لِهَيْبَتِـهِ
إلا تَغْلَغَـلَ في الأحشـاءِ كـالغَلَلِ
30 ولا هَمىٰ جُـودُهُ مـن سُحْـبِ أنْمُـله
إلّا وأغْـنَتْ أيـاديـه عـن السبـل
صفاتُ ملكٍ صِفَـاتُ المكرمات له
كالنّعْتِ، كالعطفِ، كالتوكيد، كالبدل
وخُلق من خُـلقتْ لـلسَّعـدِ غُـرَّتـهُ
وللعُلى يَـدهُ، والجـودِ، والقُبـلِ

33 كـالغيثِ لكنَّهـا نفـعٌ بـلا ضَـررِ
كـالبحرِ لكنّهـا أَحْلى من العَسَلِ
كـأنَّ راحَـتـهُ روضٌ؛ ولا زهَـرُ
غيـر اليَـراعِ بهـا والبيْضِ والأسَـلِ
من أصفَـرٍ حُبّـه للمَـجْـد أنْحَـلَهُ
فلو بَـرَاهُ الهَـوى مـا شـاءَ لم يَحُـلِ
36 أَخُـو الـرُّدَيْنِيِّ من شَكْـلٍ ومَكْـرُمَـةٍ
وربّمـا طـالَـهُ فِعـلاً ولـم يَـطُلِ
وأبيض صِيْـغ مـن مـاءٍ ومن لَـهبٍ
على اعْتمـالٍ فلم يجْمَدْ ولم يَسِـلِ
ماضي العِذارِ يَهابُ الغُمر[1] صـولتَهُ
كـأنّمـا هـو مَـطْبُـوعٌ من الأَجـلِ!
39 أبْهىٰ من الوَصْلِ بعـد الهجر مَنْـظَرُهُ
حُسْنـاً وأقـطع من بَيْـنٍ على مَـللِ
وأسـمـر ظنَّ مـاءً كـلَّ سـابـغـة
فحاصَ كالأيْمِ يَسْتَسقِي من النَّهَلِ[2]
هـامَ الكمـاةُ بـه حُبّـاً ولا عَجَـبٌ
من لـوعـةٍ بمليـحِ القَـدِّ معْتَـدِلِ

---

(١) الغمر (بالضم) الذي لم يجرب الأمور.
(٢) الأيم: الأفعى.

42 إذا الـطَّعِـيـنُ تَـلقَّـاه فـأرْعَـفـهُ
حسبْتَـهُ عـاكِفـاً يَبْكي على طَـلَلِ
يا ابن الهُمامِ الذي له حُلىً حَسُنَت
بهـا الإمارةُ حُسْنَ المَـدْحِ بـالغَـزَلِ
ومـنْ لـه كَـرمٌ رِيشَ الشّـتـاءُ بـه
فطارَ حتّى سَرى في الأرضِ كالمَثلِ
45 اهْنَـأ بهـا نِعَمـاً في إثْـرِهـا نِعَـمٌ
وسرّ واسْمُ وصِلْ وجُـدْ وسُدْ وصِـلِ
وخـذْ إليـكَ حُلىً فـصَّلْتبـهـا حُلَلاً
الفَضْـلُ فيها لِتلْكَ المَكْـرُماتِ، وَلِي
واستَقْبِل السَّعْدَ بالبُشْرىٰ التي طَلعتْ
وابلغْ بِتلْكَ العُلىٰ مـا شئْتَ من أمِـلِ

[٤]

قال أيضاً:

وليلٍ صَبابَةٍ كالدَّهْرِ طُولاً
تنكَّرَ لي وعَرَّفهُ التمامُ
3 كأن سماءَه روض تحلّى
بزهر الزُّهر، والشَّرقُ الكِمام
كأن البدر تحت الغيم وجهٌ
عليه من ملاحَتِه لثام
كأن الكوكبَ الدُّريَّ كأسٌ
وقد رقَّ الزُّجَاجَةُ والمُدامُ
كأن سطورَ أفلاك الدّراري
قِسيٌّ والرُّجوم لها سِهامُ(١)
6 كأن مدارَ قُطب بناتِ نعشٍ
نَديٌّ والنُّجومُ به نِدامُ(٢)
كأن بناته الكبرى جَوارٍ
جوارٍ والسُّهى فيها غلامُ(٣)

---

(١) قسي جمع قوس.
(٢) ندام جمع نديم.
(٣) السها كوكب خفي من بنات نعش الصغرى.

كأن بَناته الصُّغرى جُمانٌ

على لبَّاتها منه نِظامُ

9 كواكبُ بِتُّ أرعاهنَّ حتَّى

كأنِّي عاشِقٌ وهي الذِّمامُ

إلى أن مزَّقَتْ كفُّ الثُّريا

جيوبَ الأفق وإنجابَ الظَّلامُ

فما خِلْتُ انْصِداعَ الفَجْرِ إلاَّ

قِرَاباً يُنْتَضى منهُ حُسامُ

12 وما شبَّهتُ وَجْهَ الشّمسِ إلاَّ

بِوجْهِكَ أيُّها الملكُ الهمامُ

وإن شَبَّهتُه بالبدْرِ يَوْماً

فللبدْرِ المَلاحَةُ والتَّمامُ

[٥]

وقال أيضاً:

عـلِّلاني بـذكـرِ تـلكَ اللّيـالـي
وعــهــودٍ عــهِـدتُـهـا كـاللآلـي
لـستُ أنـسى لـلحُبِّ لـيلةَ أُنسٍ
صـالَ فيها على النَّوى بـالـوصـالِ
3 غـفـلَ الـدَّهـرُ والـرقيبُ وبِتْـنـا
فـعَجِبْنـا مـن اتِّـفـاقِ المُـحـالِ
ضـمَّنـا ضـمَّـةَ الـوِشـاحِ عِنـاقٌ
بـيَـمـيـنٍ مـعـقـودَةٍ بِـشـمـالِ
فـبـردتُ الـحَـشـا بِلَثْـمِ بـرودٍ
لم يـزل بي حتّى خَبـا لي «خَبالِي
6 وكـؤوسُ المُـدامُ تـجـلو عَـرُوسـاً
أضحـكَ المَزْجُ ثَغْـرَهـا عن لآلِ
ولِـنَحْـرِ الـدُّجىٰ ذوابـلُ شَـمْـعٍ
عكسَتْ في الـزُّجاجِ نـورَ الذُّبـالِ (١)
والـثُّـرَيّـا تـمُـدُّ كَفّـاً خضـيـبـاً
أعْجَمَتْ بـالسِّماكِ نـونَ الهـلالِ

(١) الذبال ج الذبالة: القتيلة (للمصباح وغيره).

9 وكأنّ الصّباحَ إذْ لاحَ سيفٌ
يُنتضى من غَينٍ وميمٍ ودالِ
ومسحْنا الكَرى إلى غانياتٍ
غانياتٍ بكلِّ سِحرٍ حَلالِ
في رياضٍ تبسّم الزّهرُ فيها
لغمامٍ بكتْ دُموعَ دلالِ
وجَرى عاطرُ النّسيمِ عليلاً
يتهادى بين الصّبا والشمالِ
12 فاكْتَسى النَّهْرُ لأمةَ منه لَمَّا
أنْ رمى القَطْرُ نحوهُ بنبالِ
يا ليالي مُنىً سَلامٌ عليها
أتُراها تَعُودُ تلكَ الليالي؟!

[٦]

وقال أيضاً:

ما ضرَّ مَنْ يمنعُني قُربَهُ
لو جاءَ في الهجرِ بما يقربُ
ما ضرَّهُ ـ والأمرُ في حكمِه ـ
لو قَبِلَ الرَّغبةَ إذ يَرْغَبُ
3 أضربَ عَنِّي حينَ لا حِيْلَةٌ
فصارَ وَجْدي مثَلاً يُضْرَبُ
عجبتُ للصبْرِ على صَدِّهِ
لكنَّ عَيشي بعدَهُ أعْجَبُ
الجَوْرُ منهُ ولهُ المُشْتَكى
والعُذْرُ منِّي وهو المُذنبُ
6 رضيتُ بالأمْرِ على حالِه
فليتَ شِعري مالَهُ يغْضَبُ؟

[٧]

وقال أيضاً:

قطَّع قلبي بصدِّهِ قِطعا
وإنما ضَرَّني وما انتفَعا

وغَـرَّنـي أَوَلاً بِـوصْـلَتِـهِ
وعـنـدَمـا لـذَّ وصْـلهُ قـطَعـا
3 ومَـرَّ عـنّي لـمَّـا شكـوتُ لـهُ
كـأنَّـهُ مـا رَأى ومـا سَـمِـعَـا
واكَبِـدي ـ لـو تُفيـد «واكبـدي»
لم يتـرك الـدَّهْـرُ فيـه لي طمَعـا
يـا ليت قـلبي الّـذي وهبـتُ لـهُ
يـرجـعْ لي اليـوم كيفَمـا رجَعـا!

[٨]

وقال أيضاً:

يـا سـالب القلب منّي عنـدمـا رمَقـا
لم يُبقِ حبُّـك لي صَبْـراً ولا رَمقـا
لا تسـألِ تليومَ عَمّـا كابـدتْ كبـدي
ليتَ الفِـراق وليتَ الحُبَّ مـا خُلِقَـا
3 مـا بـاخْتيـاريَ ذُقتُ الحُبَّ ثـانيـةً
وإنَّمـا جـارتِ الأَقـدارُ فـاتَّفـقـا
وكنتُ في كَلفي الـدَّاعي إلى تَلفـي
مِثـلَ الفَراشِ أَحَبَّ النَّـارَ فـاحتَـرقـا

يـا مَنْ تَجلّى إلى سِـرّي فَصَيَّـرني
دَكّـاً وهَـزّ فُؤادي عنـدَمـا صعَقـا

6 انْـظُرْ إليّ فـإنّ النَّفسَ قـد تَلِفـتْ
وارفُقْ عَليّ فـإنّ الرُّوحَ قـد زَهِقـا(١)

[٩]

قال الرُّندي: ولي «مربعة»

1 كـم دُعينـا لـغيـركم فـأبَيْنـا
وضَحِكـتمُ تـدلُّـلاً فَـبـكـينـا
يـا قُسـاةَ القُـلوبِ رِفْقـاً عَلينـا
مـا خُلِقْنـا بينَ الأنـامِ حَـدِيـدا

2 يـا قُدودَ الغُصـونِ عنْـدَ التَّثَنّي
مـا لَكُمْ فـي عَـذابِنـا بـالـتَّجنّي
قـد قَنِعْنـا حتّى نَسينـا التَّمنّي
وخَضعْنـا حتى بَسـطْنـا الخُـدودا

3 كـم شَكَـونـا إليكـمُ لـو رحِمْـتُمْ
وعَـلِمْتُم من حـالِنـا مـا عَلِمْتُمْ
كـلّ يـومٍ نـزيـدُ حُبـاً وأنـتُـمْ
لا تـزيـدونَ فـيـهِ إلاّ صُـدودا

(١) زهقت نفسه، وروحه: خرجت.

4 آهِ من ضَيْعَةِ القُلوب لديكمْ
حَسْبُنا أن نفرّ منكُم إليكمْ
ما لنا في الهَوى اختيارٌ عليكُمْ
غايَةُ الصَّبِّ أن يموتَ شَهِيدا
يا عُقوداً قد نُظِّمَتْ وسُلوكا
ما وَجَدْنا إلى سِواها سُلوكا
قدَّرَ اللّه أن تكونُوا مُلوكا
وقَضى: نَحْنُ أن نكونَ عبَيدا!

[١٠]

وقال أيضاً:

أيا أضلعاً حَرُّها يلهبُ
ويا أدمُعاً درّها يُنهَبُ
عجيبٌ لعمركَ شأن الهوى
ولكنّ صَبْري لهُ أعْجبُ
3 ولمْ أرَ كالحبّ يا عاذلي
عذاباً، ولكنَّهُ يَعْذُبُ
ولا كالحبيبِ وخذلانهِ
يزيدُ صُدوداً إذا يُرْغَبُ!

يَـرى أن ذنـبـي حُـبـي لـهُ
بعيْشِـكَ قـل لي ؛ مَنِ المـذنـبُ؟
6 ولـسـتُ بـسـالٍ كـمـا يَـدَّعـي
ولا مِنْ حـديـدٍ كـمـا يـحـسِـبُ
إذا كـنـتُ أرْضـى بـمـا شـاءَهُ
فـيـا ربِّ مـا بـالـهُ يَـغْـضَـبُ؟
إذا كـانَ قـلبي جَنـى مـا جَـنـى
فـيـا لَـهْـفَ نـفـسـيَ مَنْ أطـلبُ؟
9 وإن كـانَ هـذا بـحُكْـمِ الـقَـضـا
فـيـا لـيـتَ شِـعْـرِيَ مَـنْ أُعـتـبُ؟

[١١]

قال: «ومن حسن ما قيل في وصف الجيش والخيل والسلاح قولي»:

وكـتـيـبـةٍ بـالـدّارعـينَ كـثـيـفـةٍ
جـرّتْ خيـولَ الجحْفـلِ الجَـرّارِ[١]
روضُ المَنـايـا قُضْبُهـا السُّمْـرُ التي
من فَـوْقِهـا الـرّايـاتُ كـالأزهـارِ[٢]

---

(١) رجل دارع: عليه درع.
(٢) السمر: الرماح.

3 فيهـا الكمـاةُ بنـو الكمـاةِ كـأنهم
أُسْـدُ الشُّـرى بين القَنـا الخـطّارِ
متهلّلين لَـدى الـصِّيـاح كـأنمـا
خُـلِقَـتْ وجـوهـهـمُ من الأَقْـمـارِ
6 مـن كـل ليْثٍ فوق برقٍ خـاطِـف
بـيـمـيـنِـهِ قَـدَرٌ مـن الأقـدارِ
مـن كـلِّ مـاضٍ يَـنـتضيـه مـثـلُهُ
فـيصُـبُّ آجـالاً عـلى الأَعْـمـارِ
لبسوا القُلوبَ على الدُّروع وأَشْـرَعُوا
بـأكـفِّـهـمْ نـاراً لأهْـل الـنـارِ[١]
وتـقـدَّمُـوا ولهـمْ على أَعـدائـهـمْ
حـنقُ الـعِـدا وحـمـيَّـةُ الأنصـارِ[٢]
9 فـارتـاعَ نـاقـوسٌ لخلعِ لسـانِـه
ويـكى الـصّليب لـذلـةِ الـكُـفّـارِ
ثـم انـثَـنَـوْا عـنـهُ وعـن عُـبّـاده
وقَـد اصبَحُـوا خبـراً من الأخبـارِ!

(١) تكرر هذا المعنى عند الشاعر في قصيدة أخرى.
(٢) كذا (العدا) في الأصل.

[١٢]

وله تهنئة بثلاثة أشياء، في بيت واحد: عيد، وإبلال وإياب.

أفاقَ لمَّا أفقْتَ الجودُ والأدبُ
وهُنِّيءَ المجد إذ هُنِّيت والحسبُ
يا لمحةً أطلعَ العيدُ السعيدُ لها
وجهاً مكانَ هلالِ العيد يُرتقبُ
وحلّةً بطرازِ الحُسْن قد رُقِمَتْ
لا يُرقم الثّوبُ إلا وهو منتخَبُ
إن كانَ قد هَزّ ذاك العطفَ من ألمٍ
فمن أقلِّ نسيمٍ تَنثني القُضبُ
أو بانَ فيكَ شحوبٌ راقَ رونَقُه
فلستَ إلا لُجَيْناً مَسَّهُ ذَهبُ
صحَّتْ بِصحَّتك العَليا وزُيّنت الدُّنْـ
ـيا فإنْ زُهِيَتْ عُجْباً فلا عَجبُ
فاهنأ بعيدٍ سعيدٍ لا نظيرَ لَهُ
يُدْعىٰ كبيراً ولكن بُرؤك السَّببُ!
وانعمْ بنعمةِ إقبالِ الوزيرِ وقد
يُدْعىٰ كبيراً ولكن بُرْؤك السَّببُ!

وانعمْ بنعمـــةِ إقبـالِ الـــوزيـرِ وقــد
قضَي لــه اليُمنُ والإقبـالُ مــا يجبُ

٩ فيهــا ثــلاثـــةُ أعيـــادٍ أتتْ نـسَقــاً
إذ عـاد عيدٌ، وصـحَّ ابنٌ، وعاد أبُ!

[١٣]

وقال يستنجد ببني مرين، وقبائل المرغرب بخاصة، وسامعي النداء من المسلمين وراء بحر الزقاق بعامة، ويدعو إلى الجهاد، ويرثي ما ضاع من بلاد الأندلس(*):

لِكُلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نُقصانُ
فلا يُغَرُّ بِطيْبِ العيش إنسانُ
هي الأمورُ كما شاهدْتَها دُوَلٌ
مَنْ سَرَّهُ زمنٌ ساءَتْهُ أزمانُ(١)
وهٰذه الدّارُ لا تُبقي على أحَدٍ
ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ
يُمزّقُ الدَّهْرُ حَتْماً كُلَّ سابِغَةٍ
إذا نَبَتْ مَشْرِفيَّاتٌ وخُرصَانُ(٢)

(*) أنشد الرندي القصيدة بعد تحالف إسبانية والبرتغال وأرغون، وتنازل ابن الأحمر عن عدد كبير من المدن والحصون ـ راجع الفصل الأول، من هذا الكتاب، وفقرة الجهاديات من الفصل الثالث.

(١) دال الزمان: انقلب من حال إلى حال، ودول ج دولة: انقلاب الزمان.

(٢) السابغة: الدرع الكاملة. المشرفيات: السيوف المنسوبة إلى المشارف، مشارف الشام: قرى من أرض العرب تدنو من الريف. والخرصان جمع خرص: الرمح.

ويَنتضي كـلّ سَـيْفٍ لـلفَنـاء ولـو
كانَ ابن ذي يزَن والغمـد غِمدانُ[1]
6 أينَ المـلوكُ ذَوُو التّيجـان مـن يَمَـنٍ
وأين مِنـهُمْ أكـالـيـلٌ وتيـجـانُ[2]
وأيـن مـا شـادَه شـدَّاد فـي إرَمٍ
وأين ما ساسه في الفُرس ساسانُ[3]
وأيـن مـا حـازَهُ قـارونُ من ذهَـبٍ
وأيـن عـادٌ وشـدَّادٌ وقـحـطانُ[4]
9 أتَى على الـكُـلِّ أمْـرٌ لا مَـرَدّ لـه
حتى قضَـوْا فكـأن القـوم مـا كـانـوا
وصـارَ مـا كـان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ
كما حكى عن خَيالِ الـطَّيْفِ وَسْنانُ

---

(١) سيف من ذي يزن من ملوك اليمن، وغمدان قصر كان له.

(٢) انظر «أذواء اليمن» في ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ٢٧٩ ـ ٢٨١ وفي اللسان: الذوون الأملاك الملقبون بذو كذا كقولك ذو يزن وذو رعين وذو فائش. . . وهم ملوك اليمن من قضاعة، وهم التبابعة.

(٣) قيل في إرم أقوال منها أنها دمشق والاسكندرية، ونقل البكري أنه «وجد بالاسكندرية حجر نقش فيه أنا شداد بن عاد الذي نصب العماد. .» وساسان أبو طائفة عظيمة من ملوك الفرس.

(٤) نقل المفسرون في قارون أقوالاً منها أنه «كان غنياً عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم وكان منهم» راجع تفسير القرطبي ١٣: ٣١٠.

دارَ الزمانُ على دارًا وقاتِلِهِ
وأمَّ كِسْرى فما آواهُ إيوان(١)

12 كأنَّما الصَّعْبُ لم يَسْهُل له سببٌ
يوماً ولا مَلَكَ الدُّنيا سُليمان

فجائِعُ الدَّهْرِ أنواعٌ منوَّعَةٌ
وللزمان مَسَرَّات وأحزان

وللحوادثِ سُلوانٌ يُهوِّنُها
وما لِما حَلَّ بالإسلام سُلوانُ

15 دهَى الجزيرةَ أمرٌ لا عَزاءَ لَهُ
هَوَى له أُحدٌ وانهدَّ ثَهلانُ(٢)

أصابَها العينُ في الإسلامِ فارتُزِئتْ
حتى خَلتْ منهُ أقطارٌ وبلدانُ

فاسألْ بلَنسِيةً ما شأنُ مُرسِيَةٍ
وأينَ شاطبةٌ أم أيْنَ جَيَّانُ(٣)

---

(١) هو دارا الأصغر قتله أصحابه في معركته مع الاسكندر. والإيوان هو إيوان كسرى الذي بالمدائن.

(٢) الجزيرة: جزيرة الأندلس. أحد جبل قريب من المدينة. وثهلان جبل باليمن.

(٣) بلنسية ومرسية وشاطبة من مدن شرق الأندلس - وجيان وقرطبة من مدن متوسطة الأندلس.

18 وأين قُرطبةٌ دارُ العلومِ فكمْ
من عالمٍ قدْ سَما فيها لهُ شانُ
وأينَ حِمْصٌ وما تحويهِ مِنْ نُزَهٍ
ونَهْرُها العذب فَيَّاضٌ ومَلآنُ[1]
قواعِدٌ كُنَّ أركانَ البِلادِ فَما
عسَى البَقاءُ إذا لم تَبْقَ أركانُ؟
21 تبكي الحنيفيَّةُ البَيضاءُ من أسَفٍ
كما بَكى لفراقِ الإلْفِ هَيْمانُ[2]
على ديارٍ من الإسلامِ خاليةٍ
قد أُسْلِمَتْ ولَها بالكُفْرِ عُمْرَانُ
حيث المساجدُ قد صارتْ كنائسَ ما
فِيهِنَّ إلا نَواقيسٌ وصُلبانُ
24 حتّى المحارِيبُ تَبكي وهي جامِدَةٌ
حتّى المنابِرُ ترثي وهي عِيدانُ
يا غافِلاً ولهُ في الدَّهرِ موعظةٌ
إن كنتَ في سِنَةٍ فالدَّهْرُ يَقظانُ
وماشِياً مَرحاً يُلهيهِ موطِنُهُ
أبعد حمصٍ تَغُرُّ المرءَ أوطانُ؟!

---

(١) حمص هي مدينة إشبيلية، سميت بذلك لنزول جند حمص الشام (من طالعة بلج بن بشر) بها. وتقوم إشبيلية على نهر الوادي الكبير.

(٢) الحنيفية: الإسلام.

27 تلكَ المُصيبـةُ أنْسَتْ ما تقـدَّمهـا
ومـا لَهـا مـع طُـولِ الـدَّهْـرِ نِسيـانُ
يـا أيُّهـا المـلكُ البَـيضـاءُ رايَـتـهُ
أدرِكْ بسيفِكَ أهلَ الكُفْرِ لا كانـوا[1]
يـا راكبينَ عِتـاقَ الخيـلِ ضـامِـرَةً
كـأنّهـا في مجـال السَّبْقِ عُـقْبـانُ
30 وحـاملينَ سُيـوفَ الهِنْـدِ مُـرهفـةً
كـأنّها في ظَـلامِ النَّـقْـعِ نـيـرانُ
وراتـعيـنَ وراءَ الـبَـحْـرِ فـي دَعَـةٍ
لـهمْ بـأوطـانِـهمْ عِـزٌّ وسُـلطانُ[2]
أعنـدكمْ نَـبـأٌ من أهْـلِ أنـدَلُسٍ
فقـدْ سَـرىٰ بحـديثِ القَـوْمِ رُكبـانُ
33 كم يستغيثُ بَنُـو المُستضعفينَ وهُمْ
أسْـرىٰ وقَتْلى فَمـا يَهـتَـزُّ إنْسـانُ
مـاذا التَّقـاطـعُ في الإسـلامِ بينكُم
وأنـتـمُ يـا عـبـادَ اللّهِ إخْـوانُ؟
ألا نُـفـوسٌ أبِـيَّـاتٌ لـهَـا هِـمَـمٌ
أمـا علَى الخَـيْـرِ أنْصَـارٌ وأعـوانُ

---

(١) انظر فقرة «الجهاديات» من الفصل الثالث من هذا الكتاب.

(٢) المقصود بالبحر هنا بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) وهو المعبر ـ عادة ـ بين البلدين، على أن هناك طرقاً أخرى بين العدوتين أطول.

36 يـا من لـذِلَّـةِ قـومٍ بعـدَ عِـزِّهِمُ
أحـالَ حـالَـهُـم كـفـرٌ وطـغـيـانُ
بـالأمسِ كـانـوا مُلوكـاً في منـازلِهِمْ
واليـوَم هم في بلادِ الكُفْـرِ عُبْدانُ(١)
فلو تـراهُمْ حَيـارى لا دليـلَ لـهمْ
عـليهـمُ مـن ثِيـاب الـذُّلِّ ألـوانُ
39 ولـو رأيتَ بُكـاهُـمْ عنـدَ بيعِهِمُ
لَهَـالَـكَ الأمرُ واستهـوتْـكَ أحـزانُ
يـا رُبَّ أمٍّ وطِفـلٍ حِيْـلَ بينَهُمـا
كـمـا تـفـرّقُ أرواحٌ وأبْـدانُ
وطفلةٍ مـا رأتْهـا الشّمسُ إذ بـرزَتْ
كـأنّمـا هِيَ يـاقـوتٌ ومَـرجـانُ(٢)
42 يقـودُهـا العِلْجُ للمكـروهِ مُكْرَهـةً
والعينُ بـاكيَـةٌ والقَلْبُ حَيـرانُ(٣)
لمثلِ هذا يـذوبُ القَلْبُ من كَمَـدٍ
إن كـانَ في القلبِ إسْـلامٌ وإيمـانُ

---

(١) تُجمع عبد على عبيد وعبدان، وغيرهما.
(٢) الطفلة: الرخصة الناعمة.
(٣) من معاني العلج: الرجل الضخم من أهل العجم.

[١٤]

قال أبو البقاء الرندي:

دَعِيْنِي وإنْ قيلَ: الجنونُ فنونُ
فالصَّبُّ مِثلي بالهَوى مَفْتونٌ
بأبي الذي أشكُو هَواهُ وصدَّهُ
والصَّدُّ صَعْبٌ والهوى تهوينُ
كتَبَ الجَمالُ بخَطِّهِ في خدِّه
والخَطُّ في حُسنِ الخُدود يَزِيْنُ
فكأنَّ رَقْم الدّدِ منهُ أزْقمٌ
وكأنّما لامٌ بهِ أوْ نونٌ
كابَدْتُ ما كابَدْتُ في حُبّي له
والموتُ في حَقِّ الحبيب يَهُونُ
وعَدا فأظهرتُ التجلُّدَ للعِدىٰ:
الوَجْهُ يَضْحَكُ والفُؤادُ حَزِيْنٌ
أبكي ويَبْسمُ؛ بيْننا ما بَيْننا
لا يَسْتَوِي المَسْرورُ والمَحْزُونُ
فكأنمّا هو يُوسفٌ في حُسْنِه
وكأنّني من حُبِّه المجنونُ!

[١٥]

قال أبو البقاء الرندي في قدوم من سفر:

يـا ليلة الأُنس كم أدنيتِ من أَمَـلٍ
أشهىٰ وأعْـذَبَ من أَمْنٍ علىٰ وَجَـلِ
وكم تعـلّلتُ بـاللُّقيـا علىٰ شَـغَفٍ
وفيَ التَّعلُّلِ مـا يَشْفِـي من العِلَلِ
مـا زال يبسُـطني أُنسي ويَقْـبِضُـني
بُعْدِي، ويشفع لي شوقي، إلىٰ خجلي
حتّىٰ بَلَغْتُ مُنىً مـا كنتُ أحسَبُهـا
ومِنْ أكـذِّ المُنىٰ وَصْـلٌ بـلا عَـذَلِ
ولا كيـوم لقـائي لـلوزيـرِ أبي
عمـرٍو وقَدْ عَـادَ عَوْدَ الحي لـلعَـطَلِ
لـلّهِ فـي وافـدٍ سَـرَّتْ وفـادَتَـهُ
مبـاركِ السَّعْي في حِـلٍّ ومُـرْتَحَـلِ
سَـرتْ إلىٰ الحَضـرة العلْيـا بـهِ هِمَمٌ
سَرَتْ مكارِمُهـا في الأرض كالمثـلِ
إلـىٰ مـقـامٍ جَـليـلٍ زادَهُ شَـرفـاً
إذْ حَلَّ فيه حُلولَ الشَّمْسِ في الحَمَلِ
ثمَّ انْثَنىٰ عنـهُ والأقْـدارُ تَحْـفَظُـه
والسَّعْـدُ يصحَبـهُ مـا شـاءَ مِنْ أمَـلِ

خُـذْهـا إليــك أبــا عمــرٍو مهنَّئـةً
أزْهىٰ من الحُسْنِ في أبْهىٰ من الحُللِ
عـذراءَ قد بَـان فيها عُـذْرُ حاسِـدِهـا
إذ عـاذِلُ المَـدْحِ فيه رقّـةُ الغَـزلِ!

[١٦]

قال أبو البقاء الرندي في وصف الأُقْحُوان:

إذا أردتَ لــوصفِ الأُقْحُـوانِ فَقُــلْ
كــأنَّمــا هــو ثغــرٌ فيــه دينــارُ
ومُـقْلَةٌ مـن فَتِيْتِ الـبِّـرِ محكمــةٌ
لَهـا من الفِضّـةِ البَيْضـاءِ أشفــار[١]

[١٧]

قال أبو البقاء الرندي في وصف حَبِّ المُلوك[٢]:

فـتـح الـحَـبُّ نَـوْرَهُ فَـحَـسِـبْـنـا
أنَّ فـي الـرَّوْضِ قُبَّـةً مـن شَقـيـقِ
ثــم أجْــرىٰ نُـوارَهُ عــن سُــلوكٍ
مـن حَـريــرٍ فـصــوصُ عَـقـيــقِ!

(١) الأشفار: الأجفان.
(٢) هو المعروف عند المشارقة بالكرز. ولاّ يزال اسمه حبّ الملوك في المغرب العربي.

[١٨]

قال أبو البقاء الرندي في التفاح:

تُفّاحَةٌ كالمِسْكِ تفّاحَةٌ
يَصْبُو لَهَا النّاظِرُ والنّاشِقُ
جَرَتْ بها الحُمْرَةُ في صُفْرَةٍ
كما التقىٰ المَعْشُوقُ والعاشِقُ!

[١٩]

قال أبو البقاء الرندي:

المرءُ شِبْهُ خَيالٍ
وصُورَةُ العَيشِ نَومُ
آخِرُ العَيْشِ مَوْتٌ
وجُملَةُ القُمْرِ يَوْمُ

[٢٠]

قال: ولما تُوفيّ أمير المسلمين ـ رحمة اللّه عليه ـ كتبت إلى حضرة ولي عهده ابنهِ أمير المسلمين ـ أيده اللّه ـ معزيّاً ومهنئاً بالبيعة:

«المقامُ العليّ السُّلطاني المولوي ـ أطالَ اللّهُ بَقاءَهُ ـ وحلمه كالهَضْب لا يُسْتنزَل، وحَزْمُه كالعضب لا يفل[1]. وبيتُ مجدِه لا تهزمه النّوائب، وفعلُ سَعْدِه لا تجزمهُ الشّوائب.

أما بعدَ حَمْدِ اللّه الذي تعرّفَ لعبادِه فعُرف وعُبد، وأنفذَ أحكام مُراده فشُكِرَ وحُمِد. والصّلاة على سيدنا محمد أكرم من وُلد وأعز من فقد؛

فإنّ خديم المقام الكريم المُمْتسك بعروته، المعُتصم عند الشّدائد بحبُوته ابن شريف. كتَبه من رُندة ـ حرسها اللّه ـ عن رَوع مَرُوع، وفؤاد مَصْدُوع. تقطّع فاستحال نَجيعاً، وجرى فصارَ مع الدُّموع دُموعاً. الخطب الفادح. والملمّ القادح. والرُّزء الذي طاشَتْ له الأحلام، وفجع فيه الإسلام. والنّعي الذي استكّت به المسَامِعُ، وانهلّت له المَدامع. بوفاة مولانا

---

(١) الهضبة: الجبل المنبسط على الأرض، أو جبل خلق من صخرة واحدة. والعضب: السيف.

الملك الهُمام الأوحد، الأرفع الأمجد، المجاهد الأرضي الأسعد المقدس المرحوم أبي عبد اللّه أمير المسلمين وناصر الدين كرم اللّه مثواه، ونفعه بما أولاه. فقد كان للعَدل إماماً، وللدِّين قواماً، وللمُلك تاجاً وحُساماً. إن كُوثر فتُبَّعٌ[1] في حمير، أو كُوبِر فما كسرى وقيصر؟ أو زُوحِم فرضوى، وثُمام[2] أو كورم فما البحر والغمام. هذا وكم مقام للّه قامه[3] وغمْرٍ خاضَه، وصعْبٍ راضَه. وداءٍ شفاه، وعدوّ كفاه. وكرب فرَّجه. وذكرٍ بعده أرجه[4] فلطَالما جاهدَ في اللّه حَقّ جِهاده، وأجهد نفسَه النَّفيسة في اجتهاده. يسهرُ لتنامَ العُيون، ويصل الحَركات ليتّصل السُّكون، ويُعد للحادث ولعله لا يَكُون.

سياسةٌ شدّ لها حيازيم الحزم[5]، ورياسَةٌ أعدّ لها صبر أولي العزم. إلى أن حُمّ حمامهُ، وتقضّت أيّامُهْ. فهُدّ طودُه الشّامخ، وطُوِيَ مجدُه الباذخ. وأصبحَ خبراً يُذكر، ومُضمراً

---

(١) تبع واحد التبابعة وهم الملوك باليمن ونواحيها: «ولا يسمى به إلا إذا كانت له حِمير وحضرموت».

(٢) في القاموس: وصخيرات الثمام إحدى مراحله ﷺ إلى بدر.

(٣) جملة لم تتضح في نسختي الوافي.

(٤) الأرج: توهج ريح الطيب.

(٥) الحيزوم: ما استدار بالظهر والبطن أو ضلع الفؤاد وما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر.

لا يَظهر. كأنْ لم يكن للهوى جَبينه، وللندّى يمينه. وللنصر أعلامه، وللفخر أقلامه.

أما ومآثر ذخرها للفَخر، وأبقاها كالوحي[1] في الصُخر. لو أن بكاءً يشفي من وَجْد، ويردّ فائت مجد؛ لأسيلت عليه الدّموع حُمراً، وحُشيت الأحشاء جمراً، وقتل ما بينهما الصبر صبراً.

ولولا حُسن الخَلف من بعده، بمولانا ولي عهده، وسليل مجده؛ لقلنا ذهب البأس والكرم، وعُطل السيف والقلم. وغاض ماء الندى، وطفىء مصباح الهدى. ولكنّه ما أفات مجده، من أبقى مثل مولانا بعده. ولا انصرَم شرفه، من كرم خلفه. وما عُدم الوِرد وقد بقي ماؤه. ولا فُقد البدر إذا وجد ضياؤه.

ومولانا أحْسَن اللّه عزاءه، وضاعفَ جزاءه، يتذكّرفقد النبي ﷺ فيتماسك في مصابه، ويكفّ عن أوصابه[2]. ومثل حلمه لا يستزلّه الوَهل، ولا يستخفّه الوَجل. وإذا كان الموت غاية الأحياء، ونقلة من الفناء إلى البقاء. فما الجزع على فقيد أعد لرحيله، ثم مضى لسبيله. وافداً على باب الكريم، حسَن الظن بالرب الرحيم. واللّه يُجمل صبر المولى وعزاءه.

---

(١) الوحي: الكتابة.

(٢) الوصب: المرض والوجع.

ويجعل الأجر إزاءه. وهو سبحانه يطيل بقاءه، ويجعل السعد وفاءه؛ بمنّه.

وكتبت مع ذلك:

مـا جلّ خـطبٌ كمثِل الحـادثِ الجَللِ
فليقْضِ حَقّ الأَسىٰ بـالأدْمُع الهُمـلِ
مُـصـابُ مـنْ فُجِعَ الإِسـلامُ فيه ومَـنْ
سـكَّ المسـامـعَ منـه هَـدّةُ الجبـلِ[1]
وإن تكنْ طـاشَتِ الأحـلامُ من جـزَعٍ
فليسبق العُـذْرُ سبقَ السَّيفِ لـلعـذلِ
يـا حسـرةَ الـدّين والـدُّنيـا على ملكٍ
قـد كـانَ حسبهمـا لـو مُـدَّ في الأجـلِ
أصـابـهُ من وراءِ الحُـجب صـائبـهُ
إن الـمنـونَ لأرْمـى مـن بَـني ثُـعـلِ
وزاولَ الـمـلك دَهْـراً ثـم فـارَقـه
وزالَ عـنـهُ وذاكَ الـفَـخْـرُ لـم يَـزُلِ
تـنصَّـل الـجيشُ مـنـه حيـنَ أسْلمَـهُ
وليسَ في الموتِ من حَوْلٍ ولا حِيَلِ[2]

---

(١) سكّ المسامع: أصمها.

(٢) تنصل من الشيء. خرج منه وتبرأ. وفي أصل المخطوط: تنصل فيه.

فـالصَّيْدُ شـاكيـةٌ والخيـلُ بـاكيـةٌ
والـرُّمحُ ذو وجَـلٍ والسَّهْمُ ذو خجـلِ
كم في الـعـروبـة من سـرٍّ لـمُعْتبـرٍ
صرنا إلى الـوجد والمـولى إلى الجدَلِ
مـضـى لـرحـمـة مـولاه وأنـزلـه
مـا قـدمـتـه يـداه أكـرمَ النُّـزلِ
كم غَمْـرَةٍ خـاضَهـا والثغـرُ مبتسـمٌ
والمـوتُ يخـطرُ بين البِيْضِ والأسـلِ
وصـعبـةٍ راضَـهـا والحـزمُ مـعتـصِمٌ
والـرأيُ ينجحُ بين القَـوْلِ والعمـلِ
ومـا عَسى أن يُمَـدّ القـولُ في مَلكٍ
مـا خـامَ عن كـرمٍ يَـوْمـاً ولا بـطلِ(١)
ولا ازدهَتْـهُ مُنىً يصبُـو الحليمُ لـهـا
ولا سَبَتْـهُ ذواتُ الأعـيُـنِ النُّـجُـلِ
وإنّـمـا كـان والـعَـلـيـاءُ تـحـفـظُهُ
بـالمكْـرُمَـاتِ عن اللّذاتِ في شُغـلِ
سقتْـهُ مِن دِيَمَ الـرُّحْمىٰ مُـفَضْـفَضَـةٌ
تمـدُّهـا مُـذْهَبـات الأدْمُـعِ الهُمُـلِ

(١) خام عن الأمر: نكص وجبن.

فكم شفى للظُّبــا والسُّـمْــرِ من غُـلَلٍ
وكم شَفىٰ للعُـلى والمـجْــدِ من عِـلَلِ
مــولايَ مــولايَ آلافــاً مُــكَــرَّرةً
لـو كان يُجـدي نداءُ الـوَجْدِ والـوجـلِ
أصبحتَ فينـا على حُكْم الـرَّدىٰ خبــراً
فكنتَ كالضّيف أو كالـطيف في المثلِ
كـأنّ وجـهَــك لم يُـشْـرِق لنــاظِــره
كالبدرِ في السّعد أو كالشّمسِ في الحَملِ
كــأنّ كَـفّــك لــم تُـبْـسَـطْ لآمــلهــا
يَوْماً ولا عُرِضَتْ للجُـودِ والقُبَلِ
نَبْكِـي عَليــك ونَـفْنىٰ حَسْــرةً وأسـىً
والــدمــعُ حِيلَةُ من يَعْيَىٰ عن الـحِيَــلِ
والصبــرُ أجمـلُ لــو يُلْفىٰ السَّبيـلُ لــهُ
وأيّ صَبْــرٍ لقـلبٍ غيــرِ مُحْتـمــلِ ؟
يـا وارثَ المَجْدِ والمُلْكِ الـذي كَـرُمَتْ
مـنــهُ الخِــلالُ فـمَــا فِيْـهِنّ مـن خَللِ
سَلِّمْ لِمـا قَـد جَـرى حكمُ القضـاءِ بـه
فـكــلُّ شَيْءٍ مـن الأشيـا إلـى أجَــلِ
ومـا بُكـا العَيْنِ بعــد الشّيءِ نـافِعُهــا
وإنّمــا طَـللُ الـمـفـقـودِ كـالـطَّللِ

وأنتَ أكرمُ من يُعْزى العزاءُ لَهُ
وأنت أثبتُ عند الهولِ والوَهَلِ[1]
وإن مضىَ عنكَ مَوْلىً لا نظيرَ لهُ
فقد مضَى المُصْطَفى المُخْتَارُ في الرسلِ
وإن غَدا مُضْمَراً عنّا فأنتَ لهُ
كالنّعتِ، كالعَطْفِ، كالتّوكيدِ، كالبَدلِ
وفي بقائكَ للإسلامِ تسليَةٌ
وفي الأواخرِ ما يُسْلِي عن الأوَلِ
لا زلتَ للمُلْكِ والإسلامِ تَنْصُرهُ
حتّى تُبلِّغَ فيه غايَةَ الأملِ

---

(١) الوهل: الفزع.

[٢١]

قال الرُّندي: وقلت في رثاء أبي ـ رحمه الله:

دَعِ الغُرورَ فما للخُلدِ من سبَبِ
ولا قرارَ بدارِ اللَّهوِ واللَّعبِ
يا بانياً لقُصورٍ سوفَ يَتركُها
لِمن سَيملكها قَسْراً بلا تَعبِ!
وطالباً لضروبِ المالِ يجمَعُها
لمن سيأخُذها عَفْواً بلا طَلبِ
وغافِلاً أبَداً عمّا يُراد به
أَسْرَفت في غُلَواء الغَيّ فاتَّئبِ[1]
أما تَرى الدَّهر لا يُبقي على أحدٍ
أينَ الملوكُ ومن صانوه في الحجبِ
هو الحِمامُ فكنْ منهُ على حذَرٍ
ويح المُسَوِّفِ إنْ أودىٰ ولم يَتُبِ
يا ابنَ الشَّبابِ أفقْ من خَمْرِ سكرتهِ
كم من فتىً فارقَ الدُّنيا ولم يَشبِ
ويا أخا الشَّيب ماذا أنتَ مُنتظرٌ
خذْ في الرَّحيل فقد نُودِيتَ من كثَبِ

---

(١) اتأب: خزي واستحيا.

لا يتــركُ الـدّهــرُ مملوكـاً ولا ملكـاً
ولا يُبــالِي الردّى بــالجَحْفَـلِ اللَّجِبِ
ولــو نَجـا منـه مــخلوقٌ لأثْــرَتِـهِ
لكـانَ فيمن نَجـا من الحِمـام أبي . . .
يـا سيّـداً صـارَ بـطنُ الأرضِ مسكنَـهُ
ـ والـرُّبُ يـودَع فيـه خـالِصُ الـذَّهبِ ـ
لـم نَـلْثُـم الـرُّبَّ إجـلالاً وتـكـرمـةً
إلا لـمــوضِعـهــا من خَــدِّكَ الـتُّـرِبِ
ولا بَـكيـنــا ونحـنُ الصــابــرونَ دِمــاً
إلا لـشــدّةِ مــا نَـلْقـىٰ مـن الـوَصَـبِ
مــولايَ مــولايَ آلافــاً أردِّدُهــا
لــو أنهــا دعــوةٌ تَشْـفِي مـن الكُــرَبِ
لـم يبـق بعــدك لـي شـيء أُسـرُّ بــهِ
فكيف بعدكَ لي في العيشِ من أرَبِ؟

وقـال في كتـاب روضـة الأنس ونـزهـة النفس، عنـد ذكـر «الأندلس» من شعر ونثر:

الأندلس:

هي أختُ الشّـام في خصبِها وجـلالها، وضَـرّةُ العراق في بهجتها وجمالها. وكان يقـالَ: إنِ حيّها سعيـد وميتها شهيـد. وذلك لأنّ منصبها سَنِيّ ومعتقدَها سُنِيّ. مع ما خُصّت بـه من رَوقة مغانيها ورقة مغَانيها، وخُلوِّها من الفَيافي المُـرْدِية، ومن السّباع المُودِيَة، وبالجملة فهي كما قال الخفاجي:

إن لــلجنّــةِ بــالأنــدلسِ ... مُجْتَـلى حُسـنٍ ورَيّـا نَفسِ
فسنَـا صُبحَتِهـا من شنَـبِ ... ودُجىً ظُلمتِهـا مـن لعَسِ
فـإذا مـا هَبّت الـرِّيحُ صَبـاً ... صِحْتُ: واشَوْقي إلى الأندلُسِ

وكـانت قـواعـد الأنـدلس على قـديم الـزّمـان: قُـرطبـة، وإشبيلية، وغرناطة، وطُليـطلة، ومارِدَة، وسَـرَقُسطة. وكـانت ملوك القوط تتخذ في كل فصل من فصول السنة بلداً من هذه البلاد. ففي فصل الربيع مارِدة، وفي فصل الصيف إشبيليـة، وفي فصل الخريف قرطبة، وفي فصل الشتاء طليطلة.

وكانت سَرقُسطة في صدرِ الإسـلام بالأنـدلس قاعـدة الثَّغرِ الأعلى.

وقيل [إنها [يعني الأندلس] تُضاهي مَدائِنَ العِراق في أنهارها، وكثرةِ أشجارِها. وقد مضت تلك القواعدِ بسبيلها، وأمرُها مشهور. وقاعدة الأندلس في زماننا هذا غَرْناطة ـ حَرسها اللّه ـ وهي حضرةُ الإمارة النصرية أسماها اللّه تَعالى، تخترقُها المياهُ نحواً من أربعين ميلاً. وبداخِلها وخارِجها روضاتٌ ومُتَنزّهات؛ رائقةُ المسميّات والأسماء. تشابهت فيها الأرضُ بالسماء، «كالسّبيكة» و«نَجْد» وغيرهما من معاهد صور، ومَغانٍ جَمعت بين السَّباءين[1] الممدود والمقصور كما قلت من قصيدة:

ما بين «نَجْدٍ» والسّبيكةِ والحِمىٰ
أرضٌ سمَتْ حُسْناً فأشْبَهتِ السَّما
أو ما رأيتَ النَّهْرَ سالَ مجَرَّةً
فيها فأطلَعت المَزاهِرَ أنْجُما
حَيثُ التفافُ الدَّوْح ينشرُ ظِلَّهُ
بُرْداً بمطروزِ المَذانِبُ مُعْلَماً[2]
والرَّوضُ يسبكُ كل ماءٍ فِضّةً
والحُسنُ يَطْبَعُ كل نَوْرٍ درْهَما...»

---

(١) السبا والسباء: الخمر.

(٢) المذنب: مسيل الماء إلى الأرض، والجدول يسيل عن الروضة.

قال الرُّندي في روضة الأنس أيضاً، في أثناء أحد استطراداته «وقد رُثِي الحُسَين قديماً وحديثاً[١]. وممّن بكاهُ فأحزنَ ورثاه فأجاد وأحسن أبو بحر صفوانُ بنُ إدريس الأندَلُسيّ رحمه اللّه[٢]. ومن عجيبِ ما حُكي عنه أنه دخل مرّاكش في أيام المنصور بن عبد المؤمن ـ رحمه اللّه ـ وهو صِفْرُ اليدين مُنقطع الحيلة: لا كيفَ ولا أين! لا يملك فَتيلاً، ولا يجد للقاء السلطان سَبِيلاً. فعكفَ على رثاءِ الحُسَين يبكي مُصابَهُ، ويُذكي به أوْصابَه. فَنُبِّه المنصور في الليل عليه، وأُمِر بالإحسان إليه. بعناية نَبوِيّة جَبرت فؤاده، وأقامَتْ مُنآده. فاستحضَره المنصورُ ـ رحمه اللّه ـ وكَشف له عن غَيْبِه، وأمكنَهُ من سَيْبِه. وبالغَ في بُلوغ أرَبِهِ، وأنفذَ له ما أمَر بهِ.

---

(١) عن التشيع في الأندلس، راجع مقالة الدكتور محمود مكي في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد العدد ١ ـ ٢ سنة ١٩٥٤ وانظر مقدمة كتاب: درر السمط في خبر السبط لابن الأبار الأندلسي، الذي حققه الدكتور عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب (تطوان ١٩٧٢).

(٢) أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبي المرسي ٥٦٠ ـ ٥٩٨. شاعر من مرسية بالأندلس له شعر ونثر. وألف كتاب: زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، الذي حققه عبد القادر محداد (الجزائر). وانظر مقدمة الكتاب ففيها تفصيل عن صاحبه وأخبار.

وفي ذلك يقول مرج كحل[1] من قصيدة له:

ونُبِّئْتُ عن صفوانَ نيلَ كَرامةٍ
حبَاهُ بها الرَّحْمٰنُ والخُلَفاءُ
ولِلّهِ في صَفْوان أيَّةُ آيةٍ
تكشّف عنها للعِظام غِطاءُ
فما ضاعَ منهُ في الحُسَين انتصارهُ
ولا خابَ عندَ اللّهِ فيهِ جَزاءُ

وحسنياته[2] رضي اللّه عنه كثيرة مشهورة نذكر منها ما يليق بهذا الكتاب بحول اللّه عز وجل فمن ذلك قوله:

أندُب اللطف وسِبْطَ المُصطفى
بمرَاثٍ هيَ أسرَى مِنْ: «قِفَا»
لا ترُمْ ضوءَ هُدىً من بعدهِ
فسِراجُ الهَدْيِ بالطُّفِّ انْطَفا...

وممّا أحسن فيه الإنشاء وأجاد ما شاء المخمّسة التي نظم أقسامها على حروف المعجم، وذيّل مراكِزَها بأعجازٍ من

---

(١) أبو عبد اللّه محمد بن مرج الكحل (ويقال فيه مرج كحل) من أهل جزيرة شُفر (بلدة ابن خفاجة). وهو توفي سنة ٦٣٤ ببلده. وكان شاعراً مبدعاً، وخلف ديوان شعر كان متداولاً.

(٢) كذا في أصل المخطوطة. ولعلها: حسينياته.

قصيـدة امرىء القيس التي أولهـا (قفا نبـك من ذكـرى حبيب ومنزل) منها:

ديارُ الهُدى بالخَيْف والجَمراتِ إلى مُلْتقى جَمْعٍ إلى عرَفاتِ
مَجاري سيولِ الغَيْم والعَبراتِ معارفُ هَذْيٍ أصبحَتْ نكِراتِ
لِما نسجَتْها من جَنُوبٍ وشَمْألِ

قـال صاحب الكتـاب[١]: وقـد ألمَعْتُ بـطريقـةِ صفـوان ـ رحمه اللّه ـ في رثائِـه عليه السـلام بجملةٍ حَذوتُ فيهـا حَذْوَهُ فبلغتُ شَأوه بما هو في المعنى أغْرَب وإلى الحال أنْسَب[٢]. وذلك أنّي صنعتُ مخّمسةً على حُروفِ المُعجم مُذَيّلةً بأعجازٍ من قصيدة زهير؛ فيها:

أبيتُ فـلا يسـاعِـدُني عَـزاءُ إذا ذُكـر الحسينُ وكـربـلاءُ
فخـلِّ الوجْـدَ يفعل مـا يشـاءُ لمثِـل اليومِ يُـدَّخـرُ البكـا ءُ!
«عَفا من آلِ فاطِمَة الجَواءُ»

بعينـكَ يـا رسـولَ اللّهِ مـا بي دمُوعي في انهمالٍ وانسِكابِ

---

(١) كتاب روضة الأنس.

(٢) لم آنس في آثار الرندي ولا في أخباره ما يدل على تشيعه بالمعنى المذهبي. غير أن هذا النص يدل على عطف الرندي عـلى آ البيت ومحبته فيهم. ولم أقف على غيره في تراثه وأخباره.

وقلبي في انتهــابِ والتهـابِ   على دَارٍ مكــرّمــةِ الجَنــابِ
«عَفْتها الرّيحُ بعدكَ والسَّماءُ»

بكيتُ منــازلَ الصَّبــرِ السؤاةِ   بمكــةَ والمـدينــةِ والفُــراتِ
معــالمُ للعُـلا والمكــرُمـاتِ   عفَتْ آثــارُهـا وكـذاك يَـاتي
«على آثارِ مَنْ ذهبَ العَفاءُ!»

مصادر الكتاب

- **المصادر المخطوطة**

الإحاطة في أخبار غرناطة (نسخة مصورة في مكتبة صديقنا الأستاذ الدكتور أحمد بدر). ثم طبع الكتاب في أربعة أجزاء.

روضة الأنس ونزهة النفس (نقول من مخطوطة الأستاذ محمد المنوني).

الوافي في نظم القوافي للرندي (النسخة التيمورية ونسخة الرباط).

- **مصادر البحث ومراجعه المطبوعة**

إحكام صنعة الكلام لمحمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي تحقيق د. محمد رضوان الداية ـ بيروت.

الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى للسلاوي (المغرب).

- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد. ت. د. ضيف.

اللمحة البدرية في الدولة النصرية ـ ابن الخطيب ـ القاهرة.

المعيار في أوزان الأشعار للشنتريني ـ ت . د. الداية.

البيان المغرب لابن عذاري (طبعة مصورة).

تاريخ الأدب الجغرافي ـ كراتشكوفسكيّ ـ مترجم ـ القاهرة ج ١ ـ ٢ .
التاريخ الأندلسي د. الحجي ـ ط دمشق .
تاريخ الشعوب الإسلامية لبرو كلمان (مترجم) ـ بيروت .
تاريخ الفكر الأندلسي . بالنثيا ـ مترجمة د. مؤنس .
تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ـ د. الداية ـ بيروت .
الحلة السيراء لابن الأبار القاهرة ج ١ ـ ٢ .
ابن خفاجة (دراسة د. الداية) ـ دمشق .
درر السمط في خبر السبط ـ تطوان .
ديوان ابن سهل الإشبيلي ـ بيروت (دار صادر) .
الذخيرة السنية لابن أبي زرع ـ الرباط .
الذيل والتكملة لابن عبد الله المراكشي ـ الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد بنشريفة ـ بيروت .
رحلة ابن جبير (دار صادر) .
الروض المعطار للحميري (ل. بروفنسال) مصر .
زاد المسافر ـ صفوان بن إدريس ـ الجزائر .
الشعر الأندلسي ـ غومز ـ ت مؤنس ـ القاهرة .
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (١/٦) .
صلة الصلة لابن الزبير (بروفنسال) .
عصر المرابطين والموحدين (ت) عنان ـ القاهرة .
عصر الطوائف والمرابطين د. إحسان عباس ـ بيروت .
مختارات من الشعر الأندلسي د. الداية ـ دمشق .

للمُحقِّق

في سلسلة دراسات أندلسية:

١ ـ تـاريـخ النقـد الأدبي في الأنـدلس ـ دار الأنـوار (بيـروت ـ دمشق) ١٩٦٨ . ا الطبعة الثانية ـ مؤسسة الرسالة ـ دمشق ١٩٨٠ .

٢ ـ المعيـار في أوزان الأشعار لمحمـد بن عبـد الملك الشنتـريني ـ الـطبعـة الأولى ـ دار الأنوار (بيروت ـ دمشق) ١٩٦٨ . الطبعة الثـانية ـ دمشق ١٩٧٠ . الطبعة الثالثة ـ دار الملاح ١٩٨٠ ـ دمشق.

٣ ـ مختـارات من الشعر الأنـدلسي ـ المكتب الإسـلامي ـ دمشق ١٩٦٩ . الطبعة الثانية ١٩٧٢ ـ دمشق. (نفد).

٤ ـ ديوان ابن خاتمة الأنصاري ـ تحقيق ـ صدر عن وزارة الثقافـة بدمشق ١٩٧٢ . الطبعة الثانية ـ دار الحكمة ـ دمشق ـ ١٩٧٩ . (نفد).

٥ ـ الإنصاف بذكر أسباب الخلاف لابن السيِّد البـطليوسي ـ تحقيق ـ نشر دار الفكر بدمشق ١٩٧٣ .

٦ ـ شـرح مشكل شعـر المتنبي ـ لابن سيـدة الأنـدلسي ـ تحقيق ـ نشر دار المأمون بدمشق ١٩٧٥ .

٧ ـ ديوان أبي إسحاق الألبيري ـ تحقيق ـ نشر مؤسسة الرسالة (بيروت ـ دمشق) الطبعة الثانية ١٩٨٢ م.

ـ أعلام المغرب والأندلس ـ مؤسسة الرسالة ـ .. (نقد).

٩ ـ رائق التحلية في فائق التورية لابن زرقالة ـ دار الحكمة ـ دمشق ١٩٧٩. (نقد).

١٠ ـ ديوان ابن عبد ربه ـ مؤسسة الرسالة ـ دمشق ١٩٧٨. (نقد).

في سلسلة الذخائر:

١ ـ ابن خفاجة (دراسة) نشر المكتب الإسلامي ـ دمشق ١٩٧٢.

٢ ـ أبو البقاء الرندي (دراسة) نشر مؤسسة الرسالة (دمشق ـ بيروت) ١٩٧٦. الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٦ ـ ١٩٨٥.

في المكتبة الأندلسية:

١ ـ إحكام صنعة الكلام لابن عبد الغفور الكلاعي ـ (تحقيق) بيروت ـ دار الثقافة ١٩٦٥. الطبعة الثانية ـ عالم الكتب بيروت ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥.

٢ ـ نثير فرائد الجمان لابن الأحمر ـ (تحقيق نص أندلسي) دراسة عن المؤلف وأدبه وكتابه دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٦٦. (الطبعة الثانية للنصّ ـ عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٥ ـ ١٩٨٥).

أعمال أخرى:

[ـ الجمان في تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادي ـ تحقيق بالاشتراك ـ نشر وزارة الأوقاف ـ الكويت ـ ١٩٦٧. (نقد).

٢ ـ أعلام الأدب العباسي ـ تراجم واختيارات ـ نشر دار الفارابي ـ دمشق ١٩٧١ والطبعة الثانية في مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ١٩٧٩ . (نقد).

٣ ـ ابن زيدون (محاولة لإعادة النظر في دراسة شخصيته وشعره) بحث قدم إلى مهرجان ابن زيدون في ذكراه الألفية بالرباط (المغرب) ـ منهج جديد لدراسته . (نقد).

٤ ـ المنصف لابن وكيع التّنيسي (تحقيق) ـ دمشق ـ ١٩٨١ .

٥ ـ تفسير ابن جزي (تحقيق بالاشتراك) بدىء بطباعته في مؤسسة الرسالة دمشق ـ بيروت.

٦ ـ بحوث في الأدب الأندلسي ـ طبع جامعة دمشق ـ ١٩٨٠ . (نقد).

٧ ـ الأدب العربي في الأندلس والمغرب ـ جامعة دمشق ١٩٨٣ .

تحت الطبع :

ـ لسان الدين بن الخطيب: في سلسلة الذخائر.

ـ ابن زيدون : دراسة في ضوء منهج جديد. في سلسلة الذخائر.

ـ أبو إسحاق الإلبيري الأندلسي: زاهد الأندلس الثائر في سلسلة الذخائر.

ـ ديوان أبي الحسن بن الجيّاب ـ تحقيق ودراسة .

ـ أمة قد خلت (دراسة).

ـ ديوان ابن زيدون في سلسلة دراسات أندلسية .

ـ رحلة البلوي. في سلسلة دراسات أندلسية.

ـ ابن زمرك شاعر قصر الحمراء (دراسة) في سلسلة الذخائر.

- جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتّاب لابن عبد الملك الشنتريني (تحقيق ودراسة).
- ديوان أبي الطيب المتنبّي بشرح الواحدي.
- ابن أبي الخِصال رئيس كتاب الأندلس - في سلسلة الذخائر.
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني تحقيق د. محمد رضوان الداية ود. فايز الداية الطبعة الثانية بيروت ١٤٠٦ هـ.
- الحماسة المغربية.
- رايات المبرّزين لابن سعيد المغربي الأندلسي.

فهرس الكتاب

مقدمة الطبعة الأولى ..... ٥ ـ ٧

الفصل الأول:

الحياة السياسية ..... ١١ ـ ٢٣
عصر الرُّندي ١٤
دولة غرناطة في ظل بني الأحمر ١٩
حال المشرق ٢٣
الحياة الاجتماعية ..... ٢٦ ـ ٢٨
الحياة العقلية ..... ٢٩ ـ ٣٢

الفصل الثاني:

حياة الرُّندي ..... ٣٣ ـ ٤٨
اسمه وكنيته ٣٥
نسبته ٣٦

مولده ووفاته ٣٧
أسرته ٣٨
رحلاته وتغرّبه عن رُنده ٣٩
جوانبه واهتمامه ٤١
شخصيته الرندي ٤٢
صلته بدولة بني نصر ٤٣
علاقته بأدباء عصره ٤٥
مؤلفاته ٤٧

الفصل الثالث:

أدب الرُّندي ..... ٤٩ - ١١٧
الرندي شاعراً ٥١
أغراض شعر الرندي ٥٥
المدح ٥٥
الغَزل ٦٤
الوصف ٧٠
الرثاء ٧٥
أغراض أُخرى ٨٠
الجهاديات وشعر رثاء البلاد الإسلامية المغلوبة ٨٤
دراسة في شعر الرُّندي ٩٥

الرندي ناقداً ١٠٤
الوافي في نظم القوافي ١٠٤
عرض الكتاب ١٠٥
الرندي كاتباً ١١٠
كتابه روضة الأنس ونزهة النفس ١١٣
مختارات من آثاره ١١٧
مختارات شعرية ..... ١١٩ ـ ١٦١
مختارات نثرية ..... ١٦٢ ـ ١٦٧

ابو البقاء الرندي

شاعر رثاء الأندلس